سيكولوجية الجنس

يوسف مراد



سيكولوجية الجنس

تأليف
يوسف مراد



سيكولوجية الجنس

يوسف مراد

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: عبد العظيم بيدس.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٠٥٧ ٤

صدر هذا الكتاب عام ١٩٥٤
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠

المحتويات

مقدمة

علم النفس يحل مشاكلنا

كلما تأمَّل المرء في نفسه وفيما يدور حوله من أحداث، واعتنى بتتبُّع سلوك الآخرين وبدراسة تصرفاتهم، ازداد يقينًا بأن الإنسان مجموعة من المُتناقضات، ومن أهم هذه المُتناقضات أن يُحاول الإنسان العصري أن يلهو عن نفسه، وأن يحيا حياةً صاخبة مُتقلبة؛ خوفًا من أن يجد نفسه أمام نفسه. وفي الوقت عينه الذي يُحاول فيه أن يتجنَّب مواجهة ذاته، نراه يتلهَّف على معرفة نفسه وكشف أسرارها، وربما يكون الدافع إلى هذا رغبته المُلحَّة في كشف ما قد يمتاز به من فضائل؛ لكي يحتفظ بحسن تقديره لنفسه، ويفوز بتقدير الآخرين له.

ومن اليسير أن نُلاحظ أن العلوم الطبيعية تنجح في جذب الإنسان نحو الخارج بمُختَرَعاتها العجيبة، وبما تُقدِّمه له من وسائل اللهو والتسلية، وبما تُولِّد فيه من رغباتٍ جديدة وحاجاتٍ مُصطنَعة، ولكن يمكننا أن نُقرِّر من جهةٍ أخرى أن علم النفس الحديث قد ساير بخُطًا واسعة تقدُّم العلوم الطبيعية؛ فقد خرج من بُرجه العاجي حيث كان مُستغرِقًا في تأمُّلاته المجرَّدة بعيدًا عن التجربة وعن الحياة اليومية، ونزل إلى ميدان الواقع مُقتحِمًا معظم ميادين النشاط الإنساني، متَّخِذًا أحيانًا شكلًا شعبيًّا مبسَّطًا لكي يسهُل عليه الاتصال بعامة الناس؛ ليُساعدهم على إرضاء رغبتهم في معرفة أنفسهم، ويُعاونهم على حل مشكلاتهم النفسية.

والواقع أن الحاجة إلى تعاليم علم النفس وإرشادات العالم النفساني تزداد يومًا بعد يوم، خاصةً في المدن الكبيرة المُتحضرة، حيث تكثُر عوامل الصد والخذلان التي تحُول دون تحقيق إمكانيات الإنسان، وحاجته إلى الأمان والاطمئنان والمحبة والتقدير. وإذا أردنا أن نصِفَ موقف الإنسان المُعاصر لقُلنا إنه يُعاني صراعًا مستمرًّا، ويدور هذا الصراع بين مجموعتَين من القُوى؛ إحداهما دافعة والأخرى مانعة، ولا يقتصر هذا الصراع على الأشخاص مُنفردين، ولكنه يشمل أيضًا الجماعات والطبقات. وممَّا هو جدير بالذِّكر أنه لا يمكن القضاء نهائيًّا على الصراع، حتى في الحالات التي تتوافر فيها أسباب التعاون والتفاهم؛ هذا لأن ما يُميِّز الحياة الحركة والتغيُّر، فهي بمثابةِ نظامٍ ديناميكي يكون على الدوام في حالة توازُن غير مُستقر، وعلى المرء أن يُواصل سعيه لكي يُعيد التوازن باستمرار إذا أراد أن يُحقق آماله، وأن يصل إلى أهدافه.

فالإنسان لا يعيش في عالمٍ مادي بقدر ما يعيش في عالم من القيم، كالأشخاص الذين يتعامل معهم، والأشياء التي تُحيط به، والمواقف التي تضمُّه، كل هذا يكون محمَّلًا بقيمة إما موجبةٍ جاذبة أو سالبةٍ مُنفِّرة، وهذه القيم كما تبدو له في شعوره، وتبعًا لما تكون عليه دوافعه من توتُّر وتنشيط، هي التي تُوجِّه سلوكه، وتُعيِّن اختياراته، وتُشكِّل استجاباته للأشخاص والأشياء.

والمواقف الإنسانية مُتعددةٌ مُتنوعة، تنطوي دائمًا على قدرٍ كبير أو صغير من التوتر، وكثيرًا ما يكون منشأ هذا التوتر مجهولًا من بعض نواحيه، وليست النواحي التي يُدرِكها الشعور هي التي تؤدِّي الدور الهام في بعث التوتر واستمراره.

ومن المواقف الإنسانية التي تحتلُّ المرتبة الأولى من حيث شحنتها التوترية، موقفُ الرجل والمرأة كلٍّ من الآخر في أخطر مراحل الحياة، وفي مختلف ميادين التعامل والنشاط في الأسرة والمجتمع. وسيتبيَّن لنا أن هذا الموقف يضمُّ في آنٍ واحد عاملَين مُتناقضين: الحب والكراهية، الاطمئنان والخوف، الإجلال والإذلال، التعاون والتنافس، السيطرة والخضوع، وما إليها من الاتجاهات والعواطف التي تُوجِّه السلوك وتُلوِّنه.

ويُحاول الإنسان طبعًا أن يُخفِّف من حدَّة الصراع الذي يُعانيه فيما بين نفسه وفيما بينه والآخرين؛ لكي يُحقِّق ما يُعرَف بالتكيُّف النفسي والتوافق الاجتماعي. وكلما ازداد الإنسان وعيًا بالرغبات والمُقتضيات المُتضاربة التي تتنازعه، ازداد إلحاحه في طلب المعونة والمساعدة من علم النفس الحديث، الذي وُفِّق بفضل التحليل النفسي إلى الكشف عن الدوافع اللاشعورية، وإلى وضع قواعد جديدة لعلم الصحة النفسية.

وأقوى دليل على نجاح علم النفس الحديث في معالجة المشكلات الإنسانية الأساسية، انتشار العيادات السيكولوجية في جميع البلاد المُتحضرة، والعناية الفائقة التي يبذلها علماء النفس في تفهُّم نفسية الأطفال والمُراهقين وهم آباء وأمهات الغد. ولا تكون دراسة الأطفال والمُراهقين مقصورة عليهم، بل تشمل دائمًا البيئة التي ينشئون فيها، والتي يكون لها أثرٌ بليغ في إثارة المشكلة التي يُعانيها الطفل.

وأهم عامل من عوامل بيئة الطفل الأمُّ بلا أدنى شك. والواقع أن معظم حالات عدم التكيُّف وحالات الانحراف والتكيُّف الشاذ، أو بعبارةٍ أخرى معظم حالات المرض النفسي والعُقَد النفسية تنشأ من طبيعة الصلة القائمة، أو التي كانت قائمة، بين الأم وابنها في سِنِي الطفولة والمُراهقة. وإن كان الدور الذي يؤدِّيه الأب قد يكون خطيرًا في نشأة العُقَد النفسية، خاصةً عند البنت، غير أن الدور الهام هي الأم التي تؤدِّيه دائمًا؛ ولهذا السبب ستكون المرأة هي المحور الأساسي الذي ستدور من حوله دراستنا لسيكولوجية الجنس ومشكلات الزواج.

وربما يكون من المُفيد أن نُشير هنا بكلمةٍ وجيزة إلى ما يُسمَّى بالعقدة النفسية؛ فقد أصبحت هذه العبارة من العبارات المألوفة التي ترِد كثيرًا في المحادثات اليومية، والقوم يتحدثون كثيرًا عن عقدة النقص، بل قد يقول الشخص عن نفسه إنه مُصاب بعقدة النقص. والمقصود بهذه العبارة في لغة العامة هو الشعور بالنقص إزاء الفشل والحرمان، ثم محاولة الشخص تعويض ما يشعر به من قصورٍ بشتَّى وسائل التغلب والتفوق؛ غير أنه يوجد فرقٌ جوهري بين الشعور بالنقص الذي يتحدَّث عنه الناس، وبين عقدة النقص كما يعرفها علماء التحليل النفسي؛ أي إنه يوجد فرق بين الشعور والعقدة. فالشعور حالةٌ معروفة لدى الشخص، حالة يُدرِكها إدراكًا مباشرًا. أما العقدة النفسية فهي في صميمها لا شعورية؛ أي إن من هو مُصاب بعقدةٍ نفسية لا يشعر بها، ولا يُدرِك طبيعتها، ولا يعرف منشأها، بل كل ما يُعانيه أعراض هذه العقدة من تعب أو قلق أو خوف أو وهم، أو عجزٍ فجائي في بعض الوظائف الحركية والحسية، أو اضطراب في بعض الوظائف العضوية من هضم وتنفُّس وإخراج. وعندما يقول إنه يُعاني عقدةً نفسية فإنه يقول ذلك اعتمادًا على ما قرأه أو سمعه، مُعتبرًا أن تلك الأعراض لا يمكن أن تكون إلا نتيجةً حتمية لعقدةٍ نفسية.

والعوامل اللاشعورية التي تُكوِّن العقدة النفسية، هي تلك الاتجاهات الوجدانية المُتناقضة التي تتكوَّن في أثناء الطفولة خلال الخبرات والعلاقات الإنسانية التي تحدُث في

البيئة العائلية، وتندمج هذه الاتجاهات في بناء الشخصية، وتتوارى عن الشعور، وتصبح بمثابة المُحرِّك الخفي الذي يدفع الشخص غير الناضج إلى أن يسلك في المواقف الجديدة التي تُواجهه مسلكًا شبيهًا بما كان يسلكه في طفولته إزاء والدَيه وإخوته في المواقف التي كانت تصدم حسَّاسيته الناشئة، فتنبعث الشحنات الوجدانية المكبوتة مع ما تتضمَّنه من مُتناقضات وتوترات، وتعُوق عملية التكيُّف السوي التي يقتضيها الموقف الجديد.

لنفرض مثلًا أن شخصًا بالغًا يُبدي انزعاجًا عنيفًا عند رؤية الدم، بل ينفعل بشدة عند ذِكر الدم أو الإشارة إلى حادثٍ سُفكت فيه الدماء؛ فمثل هذا الانفعال العنيف الغريب لا بد أن يكون مرجعه صدمةً مؤلمة أصابت هذا الشخص في طفولته، ثم كُبتت ذكرى هذه الصدمة لما تُسبِّبه من ألم وانزعاج؛ غير أن الكبت لا يعني امِّحاء أثر الماضي، بل بقاء هذا الأثر بعيدًا عن الشعور، ومحاولته اجتياز حدود الشعور في صورة الخوف والقلق والانزعاج مع نسيان المنشأ الحقيقي العميق لهذه الحالات الشعورية المؤلمة.

ولكن حالة الشخص الذي يُعاني آثار العُقَد النفسية تكون أكثر تعقدًا وخطرًا من المثال السابق؛ فكثيرًا ما تكون العقدة مصحوبة بعملية تثبيت الدوافع والانفعالات، وخاصةً الجنسية منها، في موضوعٍ واحد هو شخص الأم أو الأب أو من يقوم مقامَ كلٍّ منهما، تكون قُوى النفس مثبَّتة ومركَّزة في هذا الشخص الآخر الذي يكون بمثابة المثال، أو بمثابة القطب الذي يجذب نحوه كل ما يدور حوله جذبًا شديدًا، ويتَّخذ هذا التثبيت صورة التعلق المُطلَق الأعمى، كتعلق الابن بأمه أو البنت بأبيها، أو بمن سيقوم مقامهما فيما بعد، كالمدرسة أو المُدرس، وأحيانًا الزوجة أو الزوج.

وفي مثل هذه الحالات نكون بصدد عقدة نفسية، كالعقدة المعروفة بعقدة الأب، والتي تُعانيها الفتاة التي ترفض الزواج مُحتجَّة بأن أباها لا يزال في حاجة إلى عنايتها، أو مدَّعِية أن شبان اليوم دون شبان الأمس من حيث الأخلاق والعادات. وسنُبيِّن أثر العُقَد النفسية في مواقف الحياة الزوجية في الجزء الخاص بمشكلات الزواج، كما أننا سنُشير إلى الوسائل التي يُقدمها علم النفس لحل هذه المشكلات. ولكي يسهل علينا فهم هذه المشكلات، وإدراك طبيعة العلاقات التي تقوم بين الرجل والمرأة في الحياة الزوجية، يجب القيام بدراسة مقارنة بين الجنسَين، مع التعمق في دراسة طبيعة المرأة جسميًّا ونفسيًّا. وهذا ما سنتناوله في الفصول القادمة.

الفصل الأول

سيكولوجية الجنس

(١) الدراسة المقارنة بين الرجل والمرأة

لم يدخل علم النفس في دور التطبيق الواسع إلا ابتداءً من الحرب العالمية الأولى، فكان اتجاهه قبل ذلك التاريخ اتجاهًا نظريًّا، يدرُس الإنسان بصفةٍ عامة مهتمًّا بالشخص البالغ المُتحضر، ثم تحوَّل الاهتمام تدريجًا نحو دراسة الطفل والمُراهق، والرجل البدائي الذي يعيش في أوساطٍ اجتماعية تختلف إلى حدٍّ كبير عن الأوساط المُتحضرة.

ولما شرع علماء النفس في تطبيق الحقائق التي وصلوا إليها في دراساتهم المختلفة اعترضتهم صعوبةٌ جديدة، وهي وجود فوارق بين الأشخاص، حتى بين الذين يعيشون في بيئةٍ اجتماعية واحدة، ويتأثَّرون بوجهٍ عام بنفس المؤثِّرات التربوية والحضارية، ومن أبرز عوامل التفرقة بين الناس العامل الجنسي، ولا شك في أن المُعتقَدات والعادات والأنظمة الاجتماعية تزيد هذا العامل وضوحًا، خاصة في تحديد نوع المَلبس والتربية والمهنة وغيرها من صور النشاط المختلفة المخصَّصة لجنسٍ دون الآخر.

وبصدد موضوع الفوارق الجنسية يوجد تيَّاران مُتطرفان في الرأي؛ ففريق يؤكِّد أن الاختلافات التي نُشاهدها في المجتمع بينَ كلٍّ من الرجل ومن المرأة، من حيث الاهتمامات والوظائف الاجتماعية، ترجع إلى العوامل الوراثية التي تُميِّز بين الجنسَين، وما يترتَّب على هذه العوامل الوراثية من خصائص جسمية ونفسية. ويذهب فريقٌ آخر إلى القول بأن الطبيعة البشرية تمتاز بالمرونة، وإنها قابلة لأن تتشكَّل بأي شكل يريد المُربي أن يطبعه عليها، حتى إن بعضهم أنكروا وجود طبيعة بشرية أولية، وزعموا أن جميع الفوارق التي نُشاهدها بين الأفراد، سواء كانوا ذكورًا أو إناثًا، ترجع إلى تأثير البيئة الاجتماعية.

إن كلًّا من هذَين المذهبين يقوم على تحيُّزٍ سابق، ويرمي إلى خدمة مذهب اجتماعي خاص؛ فهو لا يعتمد على البحوث العلمية النزيهة، ولا يلتزم في تأويله لبعض الوقائع ما يجب أن يتصف به العالم من خصائص الموضوعية وروح النقد والتحرر من التعصب.

وبما أن العالم العربي يجتاز في الوقت الحاضر مرحلةً دقيقة من مراحل نموه وتطوره، وخاصةً أن هذا التطور في صوره الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المختلفة يتناول المرأة وموقفها من حركات التطور؛ فإنه يتحتَّم علينا أن نبحث فيما إذا كانت الفوارق الجسمية الموجودة بين الجنسَين تؤثِّر أو لا تؤثِّر في تنظيم الحياة العائلية، وأساليب التربية، ومختلف أوجه النشاط الاقتصادي والاجتماعي.

ولكي نضع هذه المشكلة في صيغةٍ واقعية ملموسة تُطرَح الأسئلة الآتية:

هل حِرمان المرأة من ممارسة بعض المِهن الخاصة الآن بالرجال، يرجع إلى عدم قدرتها الفطرية على القيام بأعمال هذه المِهن، أو إن اعتقادنا بأنها تفتقر إلى هذه القدرة يرجع إلى أنها حتى الآن لم تسمح لها الظروف، وخاصةً تعسُّف الرجل، بأن تُنافس الجنس الآخر في القيام بهذه الأعمال؟

هل ترجع النسبة الكبيرة من أساطين العلم والأدب والفن والسياسة من الرجال، إلى أن فرص التعليم والبحث والتفكير والإبداع وما إليها لم تُتَح للنساء كما أُتيحَت للرجال، أو إن هذا التفاوت الكبير بين الجنسَين فيما يختص بعدد العباقرة يرجع أيضًا إلى ما يوجد بينهما من فوارق فطرية؟

لماذا تميل البنت مثلًا إلى بعض الألعاب دون غيرها؟ لماذا تحب الفتاة أن تقرأ خاصةً القصص الغرامية، في حين أن الصبي تجذبه قصص المغامرات؟ هل يرجع هذان الاتجاهان المختلفان إلى ضغط البيئة أم هناك اختيارٌ تلقائي لنوع القراءات؟

كل هذه الأسئلة وما شابهها جديرةٌ بأن تبحث بطريقةٍ جدِّية نزيهة. يجب أن نستبعد أولًا الآراء الشائعة في الفوارق بين الجنسَين؛ فقد تكون هذه الآراء مجرد تقرير لأوضاعٍ اجتماعية مُصطنَعة، بل يجب أن نتَّجه شطر البحوث العلمية التي أُجريَت في هذا الميدان؛ غير أنه ينبغي أن نذكُر أن البحوث التي يمكن الاعتماد عليها حديثة لا يرجع تاريخها إلى أكثر من ثلاثين سنة، وهي فترةٌ قصيرة في حياة علم معقَّد كعلم النفس، وليس من السهل دائمًا تأويل نتائج هذه البحوث؛ وذلك لأسبابٍ كثيرة، منها تعدُّد العوامل التي تؤثِّر في النمو النفسي والاجتماعي، وتشابُك هذه العوامل بطريقةٍ معقَّدة، بحيث يصعب الوقوف

على مدى التأثير الذي تُحدِثه البيئة في تكوُّن شخصية الفرد وتشكيلها؛ ثم إن البحوث التي تُجرى لقياس سمة من السمات العقلية، أو صفة من الصفات الخُلقية، لا تتناول إلا مجموعةً صغيرة من الأفراد إذا قِيسَت بمجموع السكان، ثم لو فرضنا أن عدد أفراد هذه المجموعة يكفي لضمان صحة النتائج، فهل في إمكاننا دائمًا أن نقطع بأن هذه المجموعة تُمثل حقًّا المجموع الكلي؟

ولنضرب مثلًا لبعض الدراسات المُقارنة التي تتناول توزيع نِسب الذكاء بين الذكور والإناث؛ فقد دلَّت بعض البحوث على أن مدى توزيع درجات الذكاء أوسع في الذكور منه في الإناث؛ أي إننا نجد عند طرفَي السُّلم عددًا أكبر من الذكور؛ أي إن درجات الإناث تميل إلى التكتل حول الوسط، في حين نجد عددًا من الذكور عند الطرف الأعلى الخاص بالعبقرية، وعند الطرف الأدنى الخاص بالبُلهاء والمعتوهين، ثم بالرجوع إلى عدد النُّزلاء في المستشفيات العقلية، وعدد الذين يُعرَضون للفحص في العيادات السيكولوجية، وُجِد أن عدد الذكور أكبر من عدد الإناث.

هل تُفسِّر لنا هذه النتائج التفاوت المُشاهد الآن بين الجنسَين من حيث التفوق في العلوم؟ ففريق من السيكولوجيين يؤيِّدون هذا الرأي، في حين أن غيرهم يرون أن الأنظمة الاجتماعية القائمة الآن تجعل التنافس بين الذكور في مجال العمل أشد من التنافس القائم بين الإناث، ويؤدِّي هذا التنافس الشديد إلى الكشف عن عددٍ كبير من ضعاف العقول، في حين أن في إمكان ضعيفات العقول أن يجدن عملًا في مجالاتٍ لا تكون فيها المنافسة شديدة كالأعمال المنزلية مثلًا.

ولا تزال المناقشة قائمة حول هذا الموضوع الهام؛ فهناك نتائج لاختباراتٍ سيكولوجية تؤيِّد الرأي القائل بزيادة تشتُّت نِسب الذكاء في الذكور، بينما تدحض نتائج أخرى هذا الرأي، وتسمح بالقول بأن الذكاء في مجموع السكان موزَّع بدرجاتٍ مُتعادلة بين الرجال والنساء، وأن التفاوت المُلاحظ بينهم من حيث الإنتاج والتفوق يرجع فقط إلى الأوضاع الاجتماعية، وأن تغيير هذه الأوضاع كفيلٌ بتحقيق تكافؤ الفرص للجميع.

رأينا من واجبنا أن نلفت الأنظار إلى العقبات التي تعترض الدراسة المقارنة بين الرجل والمرأة، وعلينا أن نتسلَّح بروح النقد العلمي النزيه في عرض هذا الموضوع الهام؛ إذ عليه تترتَّب نتائج خطيرة في كيفية تحقيق النظام الاجتماعي الذي يتلاءم مع طبيعة الإنسان، ويضمن لكلٍّ من الرجل والمرأة السعادة الحقة.

(٢) الخصائص الجسمية

لسنا في حاجة إلى أن نُثبِت وجود فوارق جسمية بين الجنسَين؛ فإن الاختلافات القائمة بينهما من حيث الشكل والتركيب الجسمي واضحة. هناك اختلافاتٌ أدق من حيث الوظائف الفسيولوجية والتركيب الكيميائي للسوائل العضوية، وترجع هذه الاختلافات في أصلها إلى التركيب الدقيق للخلايا لكلٍّ من الذكر والأنثى؛ فمن المعلوم أن نواة الخلية تحتوي على عدد من العوامل الوراثية المختلفة التي تُعيِّن الخصائص الجسمية، ومنها الخصائص التي تُميِّز بين الجنسَين.

فإذا نظرنا مثلًا في وزن الجسم، فنجد أن متوسط الوزن عند الولادة أكبر عند الذكر منه عند الإناث بمقدار ٥٪، وتصل هذه الزيادة عند الشهر العشرين إلى ٢٠٪؛ غير أن سرعة النمو في كلٍّ من الجنسَين مختلفة؛ فالصبي يحتفظ بتفوقه في الوزن حتى سن الحادية عشرة، ثم تأخذ النسبة في الهبوط، حتى إن في سن الرابعة عشرة تفوق البنت الصبي في وزن جسمها بمقدار ٥٪، ثم يسترجع الصبي تفوقه ابتداءً من سن السادسة عشرة حتى تصل نسبة التفوق إلى حوالَي ٢٠٪ في سن العشرين.

أما فيما يختصُّ بطول القامة، فالنمو يسير وفقًا لسير النمو في وزن الجسم، غير أن نسبة الزيادة أو النقصان أقل؛ فطول القامة عند الذكور أكبر منه عند الإناث من الولادة حتى سن الحادية عشرة، ولكن بنسبة ٢٪ على الأكثر، ثم تنعكس هذه النسبة بين الحادية عشرة والرابعة عشرة، فتفُوق البنت الصبي في طول قامتها بمقدار ٢٪، ويقف النمو في الطول لدى الفتاة حوالَي سن السابعة عشرة، في حين أنه يستمر لدى الفتى حتى سن العشرين، فيفُوق الفتاة في طول قامته بمقدار ١٠٪.

وليس ما يدعو إلى التنبيه بأن هذه الأرقام هي متوسطات تنطبق على المجموعة ككُلٍّ، وقد لا تنطبق على فرد بالذات؛ أي إن هناك تداخلًا أو تطابقًا بين مُنحنيات التوزيع لمقاييس الوزن والطول، وإن الاختلافات المُشاهدة بين الجنسَين قد توجد بين أفراد من الجنس الواحد.

وكذلك نجد الصبي يفوق البنت من حيث القوة العضلية، ويفوقها في القوة العضلية لقبضة اليد اليمنى بمقدار ١٠٪ في سن السابعة، ثم تستمر الزيادة حتى سن العشرين حتى تصل إلى ٥٠ أو ٦٠٪، في حين أن نمو القوة العضلية في البنت يميل إلى التوقف عند سن السادسة عشرة، ويسير نمو القوة العضلية في سائر الأعضاء على نفس هذا المنوال.

كما لُوحِظ أيضًا أن استجابة الصبي العضلية أشد منها في البنت؛ فهو أميل إلى الحركة وإلى النشاط العضلي الخارجي.

وربما يرجع هذا التفاوت في النشاط العضلي إلى الفرق الموجود بين الجنسَين من حيث سعة التنفس، أو ما يُسمِّيه العلماء بالمقدرة الحيوية، وهي تُقاس بكمية الهواء التي يحتفظ بها الشخص في رئتَيه؛ فالقول بأن المقدرة الحيوية عند الصبي أكبر منها عند البنت يُفيد أنه يستنفد كميةً أكبر من الأكسجين، وهو من مصادر الطاقة في الجسم، وممَّا يُعين الشخص على مواصلة مجهوده مدةً أكبر. ولا شك في أن تفوق الصبي في المقدرة الحيوية يُفسِّر لنا الفوارق التي نُشاهدها بين الجنسَين في اختيار ألعابهم وقدرتهم على إتمام التحصيل ومواصلة النشاط واختيار نوع هذا النشاط؛ فتفوُّق الصبي في المقدرة الحيوية يبلغ ٧٪ في سن السادسة، ومن ١٠ إلى ١٢٪ في سن العاشرة، حتى يصل إلى ٣٥٪ في سن العشرين. وممَّا هو جدير بالملاحظة أن النسبة بين القدرة الحيوية ووزن الجسم تكون دائمًا أكبر في الذكور وفي جميع الأعمار؛ ومعنى هذا أن بالقياس إلى وزن جسمه فإن الرجل يستهلك كميةً أكبر من الوقود، ويُنتِج كميةً أكبر من الطاقة.

وممَّا لا شك فيه أن تفوُّق الرجل في القوة العضلية والمقدرة الحيوية والقدرة على التحمل، من العوامل الهامة التي يجب اعتبارها عندما نتناول بالتفسير ما يُلاحَظ على الرجل من نزعةٍ قوية نحو العدوان والسيطرة في العلاقات الاجتماعية؛ ولكن يجب في الآن نفسه عدم إغفال ما قد يكون للتربية من أثرٍ بليغ في توجيه هذه النزعة وإعلائها.

أما فيما يختصُّ بسرعة النمو والسير نحو اكتمال النضج، نُلاحِظ أن البنت تفُوق الصبي في هذا المجال؛ ففي جميع الشعوب وفي جميع مناطق الأرض تصل البنت إلى البلوغ قبل الصبي، وهي تتقدَّم عليه بمقدارٍ يتفاوت بين اثنَي عشر وعشرين شهرًا، وكذلك تفُوق البنت الصبي في سرعة نمو هيكلها العظمي، وفي ظهور الأسنان، وفي قدرتها على المشي، وسوف نرى أنها تفوقه من حيث القدرة على تعلُّم الكلام، كما أننا نتساءل ما إذا كان سرعة النمو من الوجهة الجسمية يستتبع حتمًا سرعة النمو من الوجهة العقلية.

وممَّا هو جدير بالذِّكر أن تفوُّق البنت في سرعة نموها يبدأ منذ الحياة الجنينية، أي قبل الولادة؛ فهي عند الولادة أكثر نضجًا من الصبي، وعلى العموم تكون مدة الحمل للأولاد الذكور أطول بقليل من مدة الحمل للأولاد الإناث.

وهناك اختلافٌ واضح بين الجنسَين من حيث التعرض للأمراض، ومن حيث القدرة على مقاومة أسباب الموت. إننا نعلَم أن عدد النساء في العالم أكثر من الرجال بنسبة ٢٪ تقريبًا، وقد دلَّت الدراسات الإحصائية من جهةٍ أخرى أن عدد الذكور في المرحلة الجنينية

أكبر من عدد الإناث بمقدار ٣٠٪ تقريبًا، غير أن حالات الوفاة في الأجِنَّة الذكور أكثر بكثير منها في الإناث، ولكن على الرغم من ذلك تفُوق نسبة المواليد الذكور على الإناث بمقدار ٦٪ تقريبًا، فكيف نُعلِّل زيادة نسبة الإناث في مجموع السكان البالغين؟ بالرجوع إلى كشوف الإحصاء الخاصة بعدد الوفَيات تبعًا للأعمار المختلفة، نُلاحِظ أن نسبة الوفيات لدى الأطفال الذكور أكبر من نسبتها لدى الأطفال الإناث؛ ومعنى هذا أن البنت الصغيرة أقل تعرضًا للأمراض من الصبي، وأقدر منه على تحمُّل الإصابات ومقاومة الأمراض. وقد أدَّت الدراسة المقارنة إلى أن عوامل البيئة لا تكفي لتفسير هذا التفاوت، وأن السبب المُهيِّئ له يرجع إلى العوامل الوراثية التي تُعيِّن الفوارق بين الجنسَين؛ فالتركيب الكروموزومي للأنثى يحتوي على كروموزومَين «ص»، في مُقابل كروموزوم «ص» وكرموزوم «س» لدى الذكر، والثاني أضعف من الأول؛ فإذا وُجد في أحد الكروموزومَين «ص» لدى الأنثى مورثٌ رديء يُهيِّئ ظهور مرض أو عاهة، فقد يبطل تأثيره بفضل مورث جيد يوجد في الكروموزوم «ص» الآخر، أما في الذكر فقد لا يوجد في «س»، وهو الكروموزوم الضعيف، ما يُقاوم أثر بعض المورثات الرديئة التي يحتويها «ص».[١]

وهذا التفاوت بين الإناث والذكور في القدرة على مقاومة أسباب المرض والموت، يُشاهَد أيضًا لدى الحيوانات؛ فالذكر بوجهٍ عام معرَّض أكثر من الأنثى للإصابات المرَضية والعاهات الجسمية، وربما يوجد سببٌ آخر لهذا التفاوت غير السبب الوراثي، وهو أن عمليات الهدم الكيميائية الفسيولوجية مُتغلِّبة في الذكر على عمليات البناء.

ومن جهةٍ أخرى نُلاحظ أن الذكر يفُوق الأنثى في ثبات وظائفه العضوية، كدرجة حرارة الجسم وعمليتَي الهدم والبناء والتركيب الكيميائي ومستوى السكر في الدم. والمدى الأكبر لاختلال الثبات النسبي في العمليات الفسيولوجية لدى المرأة، يُفسِّر لنا كثرة تعرُّض المرأة للإغماء ولاختلال التوازن في إفرازات الغدد الصمَّاء؛ وبالتالي للتقلبات المزاجية. وسنُفصِّل القول في هذا الموضوع عند كلامنا عن طبيعة المرأة من الوجهة الجسمية والنفسية.

[١] راجع بهذا الصدد مقالنا «الجنسية من الوجهة البيولوجية في ضوء المنهج التكاملي»، الفقرة السادسة، ص٢٥، في «الكتاب السنوي في علم النفس»، لعام ١٩٥٤، ص٩–٢٨، منشورات جماعة علم النفس التكاملي، الناشر دار المعارف بمصر.

(٣) الخصائص الحسية والحركية

أُجريَت التجارب في معامل علم النفس الفسيولوجي لقياس حدَّة الإحساس للحواس المختلفة لدى الرجل والمرأة، وأسفرت هذه التجارب عن نتائج تكاد تكون مُتعادلة بين الجنسَين، فلا يوجد فرقٌ يُذكَر فيما يختصُّ بالإحساس بالحرارة، أو بالضغط على سطح الجلد، أو التقدير اللمسي لمساحة السطوح، أو الإحساس الشمي أو السمعي؛ غير أن المرأة تفُوق الرجل في القدرة على تمييز طعم المالح والحلو والمر والحامض، وهي دونه فيما يختصُّ بالتمييز العضلي بين الأثقال؛ غير أن هذه الفروق طفيفة جدًّا ليست لها أهميةٌ عملية. أما الفرق الواضح بين الجنسَين من الوجهة الحسية، فهو خاص بالإبصار وبالقدرة على تمييز الألوان؛ فمن الثابت اليوم أن عمى الألوان أكثر انتشارًا لدى الرجال منه لدى النساء، وذلك بنسبة ٨ إلى ١، وعمى الألوان عاهةٌ وراثية، منه العمى الكلي وهو نادر، ومنه العمى الجزئي وهو أكثر انتشارًا، خاصةً فيما يختصُّ باللونَين الأحمر والأخضر. والشخص المُصاب بعمى الألوان الكلي يُدرِك العالم الخارجي كما نُدرِك الصورة الفوتوغرافية غير الملوَّنة، والتي تحوي فقط درجات الرمادي من الأسود إلى الأبيض. أما الشخص المُصاب بعمى الألوان الجزئي، فإنه يرى بعض الألوان دون غيرها؛ فلا يُميِّز مثلًا بين الأحمر والأخضر أو بين الأزرق والأصفر فيخلط بينهما، غير أنه في حياته العادية قد لا يتأثَّر كثيرًا بهذا النقص؛ إذ إنه يتعرَّف الأشياء بخصائصها الحسية الأخرى كالشكل، وخاصةً درجات النصوع؛ أي كمية الضوء الذي تعكسه الأشياء. ودرجات النصوع تختلف باختلاف الألوان، كما تختلف باختلاف درجات الرمادي.

وقد يوجد أن عمى الألوان موجود في الرجال بنسبة ٤٪، في حين أن هذه النسبة في النساء لا تفُوق ١ / ٢٪.

وتفُوق المرأة الرجل في القدرة على تمييز الألوان، وتمييز فروق دقيقة بين درجات اللون الواحد، ويُشاهَد هذا الاختلاف في البالغين من الجنسَين، وربما يرجع تفوُّق المرأة إلى كثرة تدريبها في استخدام الألوان في أعمال التطريز والتريكو وحياكة الملابس، غير أن هذا الاختلاف يُشاهَد أيضًا منذ الطفولة عندما يُقارَن بين أطفال من سنٍّ واحدة من الجنسَين، ويرجع تفوُّق البنت على الصبي في سنٍّ واحدة إلى تقدُّم البنت من حيث النضج العضوي، غير أن تأخُّر الصبي لا يستمر بالنسبة نفسها، بل هو يقترب تدريجًا من متوسط قدرة البنت ويرتفع فوق هذا المتوسط في سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة؛ وذلك لأن البنت

في هذه السن يُوشِك نموها الجسمي أن يكتمل، في حين لا يزال الفتى يُواصل نموه حتى سن العشرين.

نستنتج مما سبق أن الاختلافات بين الجنسَين في المجال الحسي ضئيلةٌ جدًّا، فيما عدا القدرة على تمييز الألوان، وحتى في هذه القدرة الأخيرة التي تكون فيها البنت مُتفوِّقة على الصبي، فإن هذا التفوق ينعكس عند سن السادسة عشرة، كما يجب أن نذكُر أن هذه القدرة تتأثَّر إلى حدٍّ كبير بالممارسة والتمرين.

تكلَّمنا حتى الآن عن القدرات الحسية كلٍّ على حِدَة في ضوء تجارب خاصة تُجرى في المعمل. أما إذا انتقلنا إلى الحياة العملية التي يعتمد فيها النشاط على تضافُر القدرات الحسية والعقلية، فإن المقارنة تصبح شاقَّةً عسيرة لتدخُّل عدد كبير من العوامل؛ غير أن هناك بعض نتائج ثابتة جديرةٌ بالذِّكر. ففيما يختصُّ بالأعمال التي تتطلَّب إدراكًا سريعًا للتفاصيل، وانتقال الانتباه من جهة إلى جهةٍ أخرى، فإن المرأة تفُوق الرجل تفوقًا ملحوظًا، وقد وُجِد هذا التفوق في الاختبارات التي تتطلَّب المقارنة السريعة بين كشفَين من الأسماء أو من الأرقام؛ ممَّا جعل علماء النفس يعتقدون أن المرأة أصلح من الرجل للقيام بأعمال السكرتارية والوظائف الكتابية.

أما فيما يختصُّ بالأعمال التي تتطلَّب إدراك الخصائص المكانية، أو تصوُّر هذه الخصائص، فإن تفوُّق الرجل ثابتٌ بلا جدال، وهذا يُفسِّر لنا تفوُّقه في القدرات الميكانيكية. ولكن البنت الصغيرة تفُوق الصبي في المهارة اليدوية؛ فهي قادرة على ارتداء ملابسها، والقيام بالحركات اليدوية الدقيقة في سنٍّ مُبكرة عن سن الصبي، ومن هذه الأعمال نذكُر عقد العُقَد والفيونكات ومعالجة الأزرار ربطًا وفكًّا وأشغال الخرز … إلخ من الأعمال التي تتطلَّب سرعةً وحذاقة في تحريك أطراف الأصابع، وفي أثناء الحرب الأخيرة لُوحِظ تفوُّق العاملات في المصانع في الأعمال التي تتطلَّب سرعة الحركات ودقتها، كأعمال الفرز وأعمال تركيب الأجزاء والقِطع الصغيرة.

والآن ننتقل إلى مجال الألعاب الرياضية، وليس غرضنا التحدث عن الألعاب المفضَّلة لدى كل جنس من الجنسَين، بل المقارنة بينهما فيما يختصُّ بالقدرات الحركية في بعض الألعاب، كالسباق والقفز إلى الأمام والقفز إلى أعلى والرمي؛ فقد أُجريَت اختبارات في جامعة كليفورنيا على مجموعة من المُراهقين والمُراهقات مدة ثلاث سنوات، تتبَّع خلالها المُجرِّب أفراد المجموعة ابتداءً من سن الثالثة عشرة، وقد أسفرت النتائج عن تفوُّق البنين على البنات. غير أن الأمر الذي يسترعي الانتباه هو أن البنين يتقدَّمون باستمرار مع السن، في

حين أن تقدُّم البنات يقف عند سن الرابعة عشرة ثم ينخفض قليلًا، ويرجع هذا الاختلاف في نسبة التقدم وشكله إلى عوامل نفسية لا مجرد عوامل جسمية، كالقوة العضلية أو المقدرة على تحمُّل التعب الجسمي مثلًا؛ ففي سن المراهقة تأخذ الجاذبية بين الجنسَين تقوم بدورها، فتُدرِك البنت أن مجال القوة العضلية ليس مجالها، وإذا تفوَّقت في هذا المجال فلن يُثير هذا التفوق إعجاب زميلها، كأن الأعمال العنيفة تُقلِّل من جاذبيتها وتُسيء إلى أنوثتها الناشئة، بينما يُدرِك الفتى أن إظهار القوة وتفوُّقه في ميدان الألعاب الرياضية من العوامل التي تُثير إعجاب زميلته به، ويؤدِّي التنافس بين المُراهقين إلى زيادة حماسهم؛ ممَّا يجعلهم يُقبِلون على التمرينات الرياضية ومزاولة الألعاب التي تتطلَّب القوة والشجاعة.

فهناك إذن بجانب العامل الجسمي عامل الاهتمام وتأثير الدوافع النفسية. نعم إن ما يطرأ في سن المُراهقة من تغييراتٍ فسيولوجية نتيجة لتنشيط الغدد الجنسية يؤثِّر في بعث الاهتمامات المختلفة لدى الجنسَين، غير أنه يجدر بنا ألا ننسى العوامل الحضارية والثقافية التي قد تُغيِّر من هذه الاهتمامات، أو بالعكس تعمل على تثبيتها؛ ولذلك يجب دائمًا أن نُراعي في مقارنتنا بين الجنسَين البيئة الاجتماعية الخاصة، وما تتميَّز به هذه البيئة من مُعتقَدات وعادات وتقاليد، وستُتاح لنا الفرصة للعودة إلى هذه النقطة الهامة في كلامنا عن أثر العوامل الاقتصادية والحضارية في تكوين الشخصية.

(٤) القدرات العقلية

كثيرًا ما يشكو المرء من طبعه، في حين لا نسمعه إلا نادرًا يشكو من ذكائه، والطالب الذي يرسُب في الامتحان يتَّهم المُمتحِن بالتحيز والتحامل عليه، وعندما تحتدُّ المناقشة بين شخصَين، ويعجِز أحدهما عن إقناع الآخر، فلا يجد مَخرجًا للموقف سوى أن يرمي الآخر بالغباوة وعدم الفهم. والواقع أن اعتزاز المرء بذكائه وفطنته أمرٌ ملحوظ، وعندما يُصرِّح بأنه غبي فتصريحه هذا هو ضرب من الإثبات في صورة النفي. وتشتدُّ المُفاضلة حول الذكاء بين الجنسَين؛ فالرجل يعتقد أنه أذكى من المرأة، والمرأة تعزُو هذا الاعتقاد — وهو اعتقادٌ خاطئ في نظرها — إلى كبرياء الرجل وعجرفته.

وقبل أن نُحاوِل البتَّ في هذا الإشكال، يجب أن نذكُر أنه ليس من اليسير تعريف الذكاء ومعرفة طبيعته؛ هل هو قدرةٌ عامة على التفكير المنطقي وإدراك العلاقات، أم هو مجموعة من القدرات؟ هل يكفي للحكم على ذكاء شخص أن نُجري عليه أحد اختبارات

الذكاء المعروفة، وأن نقول مثلًا إن نسبة ذكائه ١٠٠ أو ١١٠ أو ١٢٠؟ وما معنى هذا التقدير الكمي؟ وما هو المقصود بقولنا إن فلانًا أذكى من فلان؟

إن هذا الموضوع من أشق موضوعات علم النفس، وأكثرها عُرضة للتأويلات المُتناقضة؛ فمعظم الاختبارات التي استُخدمت لقياس الذكاء بقصد المقارنة بين الجنسَين، كانت اختباراتٍ لفظيةً تعتمد في بعض أجزائها على اختبار المعلومات، ومن المعلوم أن بعض الموضوعات لا تُثير الاهتمام نفسه لدى الفتى والفتاة، ثم يجب مراعاة البيئة الثقافية التي تختلف في بلدٍ واحد متأثرةً بعوامل جغرافية واقتصادية كالبيئة الريفية والبيئة الحضرية، بيئة المناطق الجبلية في مُقابل بيئة السواحل ... إلخ. وحتى في المدينة نفسها توجد بيئاتٌ مختلفة من حيث المستوى الاقتصادي، ومن حيث وسائل التعليم، وأساليب الترفيه وقضاء أوقات الفراغ ... إلخ. لنأخذ مثلًا الاختبارات التي أجراها العالم السيكولوجي الأمريكي المشهور ثورنديك على مجموعةٍ كبيرة من طلبة وطالبات المدارس العليا في نيويورك؛ فقد أسفرت النتائج لثلاثة اختبارات مُتعادلة عن تفوقٍ ملحوظ للطلبة على الطالبات، وقد وجدت نفس النتيجة في تطبيق اختبار الذكاء للجيش الأمريكي، المعروف باختبار ألفا، ولكن بالرجوع إلى تحليل مواد هذه الاختبارات وُجِد أن الفرق بين الجنسَين لا يقوم على فرق في القدرة الطبيعية، بل على اختلاف في الاهتمام وفي فرص تحصيل بعض المعلومات. وعلى العكس من هذه النتائج، فقد أسفرت اختباراتٌ أخرى عن تفوُّق البنات على البنين، وقد لُوحِظ أن العامل المُساعد لتفوُّق البنات هو العامل اللفظي واللغوي؛ إذ إنه أصبح من المؤكَّد اليوم أن البنت بوجهٍ عام تفُوق الصبي في قدرتها على تعلم اللغة واستخدامها.

أما إذا راعى واضع الاختبارات إبعاد العوامل التي تُساعد جنسًا دون الآخر، كما هو الحال في اختبار استنفورد بينيه المُعدل سنة ١٩٣٧، فلا يوجد أي فرق يُذكَر بين الجنسَين من حيث الذكاء العام.

هذا ولا يزال مفهوم لفظ الذكاء، كما هو مُستخدَم في عبارة «اختبارات الذكاء»، مفهومًا غامضًا لا يخلو من الالتباس؛ ولذلك اهتم علماء النفس بقياس القدرات الخاصة التي تشترك في أداء اختبارات الذكاء اللفظية، ومن هذه القدرات نذكُر القدرة اللفظية أو اللغوية، التذكر، القدرة المكانية والميكانيكية، القدرة العددية، وأخيرًا القدرة الفنية، وخاصةً القدرة الموسيقية. وسنعرض الآن لهذه القدرات المختلفة، مُبتدئين بالقدرة اللفظية أو اللغوية؛ ففي هذه القدرة يتفوَّق دائمًا البنات على البنين، وذلك منذ الطفولة حتى سن البلوغ. وقد وجدت بعض النتائج المُعارضة لهذا التقرير، غير أن الاختلاف يرجع إما لتدخُّل

عوامل عرَضية لم يفطن لها المُجرِّب، أو إلى نوع المعلومات الواردة في الاختبار، والتي قد تُساعد جنسًا دون الآخر. وعندما نتتبَّع نمو الوظيفة اللغوية لدى الطفل نُلاحِظ أن البنت تتكلَّم قبل الصبي، وأنها تفُوقه في عدد الكلمات التي تستخدمها أو التي تفهمها؛ ففي سن سنة ونصف تكون النسبة المئوية للكلمات المفهومة لدى البنت ٣٨٪، في حين أنها ١٤٪ فقط لدى الصبي؛ وفي سن سنتَين ٧٨٪ لدى البنت، و٤٩٪ لدى الصبي. وكذلك تسبق البنت الصبي في تركيب الجمل، وفي تعلُّم القراءة، وفي القدرة على ضبط مخارج الحروف وتوضيح مقاطع الكلام. وبهذه المناسبة يجب أن نذكُر أن البنت أقل تعرضًا للتهتهة وعيوب النطق من الصبي، وتحتفظ البنت بتفوُّقها اللغوي في جميع مراحل الدراسة؛ فهي أسرع في القراءة وفي تمارين تكملة الجمل الناقصة أو القصص الناقصة، كما أنها أغزر مادة لفظية في كتابة موضوعات الإنشاء. ووجدت مثل هذه النتائج التي تؤيِّد تفوُّق البنت في القدرة اللفظية واللغوية في الاختبارات التي أُجريَت على الزنوج والصينيين واليابانيين وسكان جزيرة هواي.

أما فيما يختصُّ بالقدرة على التذكر، فالفرق بين الجنسَين ضئيل، وإن كان غالبًا في جانب البنت، خاصة في تمارين التذكر المنطقي التي تعتمد على استخدام اللغة وفهمها. ومن المسلَّم به أيضًا أن المرأة تفُوق الرجل في تصوراتها الذهنية البرَّاقة اللامعة، غير أنه لا يمكن البتُّ فيما إذا كان يرجع هذا الفرق إلى الخصائص الجنسية أم إلى نوع الأعمال التي تقوم بها المرأة.

ننتقل الآن إلى القدرة المكانية والميكانيكية؛ فإن نتائج الاختبارات تؤيِّد تفوُّق البنين على البنات في هاتَين القدرتين، غير أن هذا التفوق لا يظهر إلا ابتداءً في سن الخامسة. ومن الاختبارات التي استُخدمت نذكُر فهم العلاقات الميكانيكية، اختبارات المتاهة، لوحة الأشكال الهندسية، فتح الصناديق ذات الأقفلة المعقَّدة؛ فكل هذه الاختبارات تقتضي من الشخص تصوُّر العلاقات في المكان في اتجاهَين أو في الاتجاهات الثلاثة. غير أن البنت تتفوَّق على الصبي في الاختبارات الميكانيكية التي تتطلَّب المهارة والسرعة في حركات الأصابع أكثر من التصورات المكانية. وقد يُعزى تفوُّق البنين في القدرة الميكانيكية إلى نوع الألعاب التي تُقدَّم لهم وهم أطفال، غير أنه يمكننا أن نقول إن الفرصة لا يمكن أن تُثير الاهتمام وأن تضمن تواصُله إلا إذا كان هناك استعدادٌ فطري، وما يُقال عن الألعاب الميكانيكية التي تُقدَّم للبنين يُقال عن العرائس والألعاب المنزلية التي تُقدَّم للبنات؛ فهناك دائمًا تجاوُب بين الفطرة والبيئة، مع التسليم بما تمتاز به طبيعة الإنسان من مرونة وقابلية للتعديل.

وكذلك نجد البنين يتفوَّقون على البنات في القدرة الحسابية والرياضية بوجهٍ عام، وخاصةً في حل المسائل الحسابية والهندسية. أما فيما يختصُّ بالعمليات الحسابية الأولية من جمع وطرح وضرب وقسمة، فالفروق بين الجنسَين تكاد تكون معدومة.

وقد أُجريَت بعض الاختبارات للمقارنة بين الجنسَين من حيث القدرات الفنية، وخاصةً القدرة الموسيقية؛ فقد وُجد أن رسومات البنات تحوي عددًا أكبر من التفاصيل من رسومات البنين. ويُشاهَد هذا الفرق في الطفولة، أما مع تقدُّم السن فإنه يصبح من المُتعذِّر المقارنة بين الجنسَين لتدخُّل عوامل التمرين.

أما فيما يختصُّ بالتذوق الفني والحكم الفني، فقد وُجد أن المرأة تتفوَّق على الرجل تفوقًا ذا دلالة وإن كان يسيرًا، سواء تناوَلَ الحكمُ الفني التصويرَ أو الموسيقى.

أما القدرة الموسيقية أو الاستعداد لتعلم الموسيقى، فلا يوجد فرق يُذكَر بين الجنسَين، والأفراد الموهوبون في مجال الموسيقى لا ترجع موهبتهم إلى التمرين أو إلى الإقامة في جوٍّ فني، بل إلى العوامل الوراثية.

ونختتم هذا العرض بكلمةٍ مُوجَزة عن التحصيل المدرسي؛ فمن الثابت تفوُّق البنات على البنين في التحصيل والنجاح في الامتحانات، ومن أسباب هذا التفوق نذكُر تفوُّق البنت في القدرة اللغوية؛ في جمال خطها ووضوحه، وفي بعض السمات الخلقية مثل الطاعة والهدوء والخضوع لنظام المدرسة، وتحصينها خارج المدرسة ضد عوامل التشتت وضياع الوقت.

(٥) الميول والاتجاهات

من مظاهر الشخصية المُرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالسلوك الانفعالي والاجتماعي الاتجاهاتُ العاطفية نحو الأشياء والأعمال والأشخاص؛ أي ما يحب المرء وما يكره، وما يجذب اهتمامه، وعلى العكس ما لا يُثير الاهتمام، بل ما يُحدِث ابتعادًا ونفورًا. ولا شك في أن التربية التي يتلقَّاها الطفل في مجتمعه الخاص، والأمثلة التي تُثير ميله إلى التقاليد والمحاكاة، من أهم العوامل التي تخلق هذه الاتجاهات التي تُميِّز فردًا عن غيره من الأفراد. ومن الواضح أن هناك بعض الاتجاهات التي تُميِّز بين الجنسَين، ولمعظم هذه الاتجاهات المختلفة أساس في الفروق الجنسية، غير أن الأوضاع الاجتماعية والتقاليد والآراء السائدة تعمل على تنمية هذه الاتجاهات وتثبيتها.

ويجب أن نُشير في بدء هذا الحديث إلى أن معظم الدراسات التي تناولت هذا الموضوع أُجريَت في الولايات المتحدة، وقيمة هذه الدراسات لا تتجاوز البيئة الأمريكية أو الغربية بوجهٍ عام، وقد يجوز تطبيقها في محيطنا الشرقي بقدر أوجُه الشبه القائمة بينه وبين المحيط الغربي، وبقدر اشتراك أفراد الجنس البشري في طبيعةٍ أصلية واحدة، تمتدُّ حدودها إلى العوامل البيولوجية التي تُميِّز بين الذكور والإناث.

تناولت هذه الدراسات ميول الأطفال من الجنسَين في ميادين شتَّى من النشاط، كاللعب والرسم التلقائي واختبار موضوعات الإنشاء والأدب والحديث والهوايات والقراءات وأفلام السينما وبرامج الراديو واختيار المِهن والأهداف والمُثل العليا، وقد أدَّت هذه الدراسات إلى إبراز فروق ذات دلالة إحصائية بين الجنسَين. وممَّا هو جدير بالذِّكر أن هذه البحوث لم تأتِ في الغالب بنتائج جديدة كل الجِدة، بل أيَّدت الآراء الشائعة التي تتلخَّص فيها الخبرة اليومية، والمعلومات التي يجنيها الإنسان من ممارسته للحياة.

لنأخذ مثلًا الألعاب المفضلة لدى جنس دون الآخر، نجد أن البنين يميلون إلى الألعاب التي تتطلَّب بذل الجهد والنشاط، والتي تقتضي القوة والمهارة العضلية، خاصةً في الألعاب المنظَّمة التي تقوم على المنافسة، ككرة القدم والملاكمة والمصارعة والألعاب الميكانيكية والصيد والتجديف. أما ألعاب البنات فهي أميل إلى الهدوء، وإلى محاكاة الأعمال المنزلية والمدرسية. كما لُوحِظ في رياض الأطفال أن البنين يميلون إلى اللعب بمواد البناء، في حين أن الرسم وصنع التماثيل بالبلاستين من الألعاب المحبَّبة لدى البنات.

وهناك بلا شك طائفةٌ من الألعاب مشتركة بين الجنسَين. وقد وُجد أن أكبر نسبة للفروق بين الجنسَين تقع في الفترة بين السن الثامنة والحادية عشرة، وبعد هذه السن يأخذ التشابه يزداد مع تقدُّم السن. غير أنه لُوحِظ أن ألعاب البنين أكثر تنوعًا من ألعاب البنات.

وقبل الانتهاء من الحديث عن الألعاب، نودُّ أن نذكُر بعض النتائج الطريفة عن نوع من النشاط يجمع بين اللعب والجد، وهو الاهتمام بالمجموعات؛ فالبنات يمِلن إلى جمع الصور وقطع الأقمشة أكثر من البنين، أما البنين فيميلون أكثر إلى جمع طوابع البريد وقطع الأحجار والصخور.

والفروق واضحة أيضًا فيما يختصُّ باختيار كتب القراءة؛ فالكتب التي تستهوي البنين هي التي تُصوِّر المغامرات العنيفة والرحلات والاستكشافات والأخبار العلمية وتراجم الأبطال من الرجال. أما البنات فيمِلن إلى قراءة قصص الحب والغرام، والمغامرات اللطيفة

التي يكون أبطالها من الأطفال، وتراجم المشهورات من النساء، وبوجهٍ عام الكتب التي تصف ألوان النشاط النسائي المختلفة.

وهذه الاختلافات في الميل نحو بعض الموضوعات موجودة أيضًا فيما يختصُّ بالروايات السينمائية وبرامج الراديو، وكذلك برامج الدراسة؛ فالبنين أميَل إلى دراسة العلوم والرياضيات والتاريخ، والبنات إلى دراسة اللغات والمواد التجارية والموضوعات الدينية، غير أن هذا الاختلاف في الميل نحو المواد الدراسية ليس ثابتًا باستمرار؛ فقد يتغيَّر بتأثير شخصية المُدرس ومنهجه.

ننتقل الآن إلى اختبار الجنسَين في مجال العمل والمهنة. وقد أدَّت البحوث إلى أن البنين يؤثِرون الأعمال التي تقتضي درجةً أكبر من المسئولية، والتي تتضمَّن درجةً أكبر من المخاطرة والمشقَّة، بشرط أن يُعوِّض ذلك أجرٌ مرتفع، كما يؤثِرون وضع الخطط بدلًا من تنفيذ خطة يضعها الآخرون، وأن يكونوا قادة بدلًا من أن يكونوا تابعين لغيرهم. والبنات بوجهٍ عام على العكس من البنين، وقد لُوحِظ أن اهتمامهن بالأشخاص أكبر من اهتمامهن بالأشياء؛ ولذلك نجد النساء ينجحن أكثر من الرجال في المؤسَّسات الاجتماعية التي ترعى المرضى والفقراء، وتعتني خاصة بحالتهم المعنوية.

ولا يفوتنا أن نذكُر البحوث الطريفة التي أُجريَت للوقوف على الموضوعات التي يتناولها الرجال والنساء في محادثاتهم، في الأندية والحفلات والشوارع وغيرها من الأماكن العامة، وكان تسجيل الأحاديث يجري بدون علم المُتحدثين، فوُجد أن الموضوعات الأكثر تداولًا على ألسنة الرجال هي المسائل المالية والأشغال والأعمال التجارية والألعاب الرياضية، في حين أن النساء يتناولن في أحاديثهن غيرهن من النساء، وبوجهٍ عام الأشخاص دون الأشياء، فيما عدا اهتمام المرأة المعروف بكل ما يتصل بالأزياء والمَلبس.

غير أن هناك عاملًا هامًّا يُقرِّب بين الجنسَين، من حيث موضوعات الحديث واختيار موضوعات القراءة في المجلات والصحف، وهو عامل الاشتراك في مهنةٍ واحدة كالطب أو المحاماة؛ فقد وُجد أن الاختلافات بين الجنسَين في هذه الحالة أقل من الاختلافات الموجودة بين أفراد الجنس الواحد؛ ممَّا يُشير إلى أثر البيئة والمهنة في توحيد الاتجاهات بين الجنسَين. ويُلاحَظ في بعض الاختبارات التي أُجريَت على البنين والبنات لمعرفة ميولهم المهنية، أنهم مُتأثِّرون إلى حدٍّ كبير بما يعتقده المجتمع ويأخذ به في تقسيم المِهن والأعمال بين الرجال والنساء؛ غير أن هذا لا ينفي أثر بعض القدرات والميول الفطرية التي تُوجِّه جنسًا في اتجاهٍ ما بطريقةٍ واضحة؛ فالمرأة بوجهٍ عام تؤثِر الأعمال التي تسمح بها بإبراز قدرتها اللغوية وإرضاء نزعتها الاجتماعية إلى العناية بالأشخاص أكثر من عنايتها بالأشياء.

ونختتم هذه الفقرة بالإشارة إلى موقفِ كلٍّ من الرجل والمرأة من القيم الحضارية الكبرى، وتناول أحد البحوث القيم الست الآتية: القيمة النظرية العلمية – الاقتصادية – الفنية – الاجتماعية – السياسية والدينية. وأسفرت نتائج هذا البحث على أن المرأة أكثر استجابة من الرجل للقيم الفنية والاجتماعية والدينية، في مُقابل القيم النظرية والاقتصادية والسياسية. وهذه النتائج مؤيِّدة لما سبق أن وضَّحناه، كما أنه لُوحِظ أن عامل المهنة مهم جدًّا؛ فهو كما قلنا من عوامل التقريب بين الجنسَين، وكثيرًا ما يكون أثره أقوى من أثر الفروق الجنسية القائمة على الفطرة والطبيعة، ولكن من حقنا أن نطرح السؤال الآتي: ألا يتم هذا التقارب بين الجنسَين بتأثير المهنة الواحدة على حساب سعادة المرأة واتزانها الانفعالي؟

(٦) التكيُّف الاجتماعي

لا يختلف الأشخاص بعضهم عن بعض في القدرات الحسية والحركية والعقلية فحسب، بل يختلفون أيضًا في أخلاقهم واتجاهاتهم الاجتماعية وقدرتهم على المثابرة وضبط النفس.

قد سبق أن أشرنا إلى أن المرأة أكثر استجابة للقيم الفنية والاجتماعية والدينية، وسنذكُر الآن نتائج أحد البحوث المشهورة التي أُجريَت في مجال السمات الخلقية، وهو البحث الذي تناول عشرة آلاف من الأطفال، وكان غرضه المقارنة بين الجنسَين في السمات الخلقية الأربع الآتية: الخداع أو الغش، ثم التعاون والإقبال على خدمة الآخرين، ثم القدرة على الصبر والمثابرة، وأخيرًا القدرة على ضبط النفس.

ولضمان صدق النتائج كان الغرض الحقيقي من الاختبار مجهولًا من الأشخاص المُختبَرين، ورُوعِي هذا الشرط خاصة في اختبار الخداع والغش. ومن خصائص هذا الاختبار أن يُطلَب من التلاميذ تصحيح أعمالهم المدرسية سواء في الفصل أو في المنزل، اتباع بعض التعليمات أو عدم اتباعها، كأن يستعين الشخص ببصره مع أن المطلوب عمل التمرين أو القيام ببعض الحركات أثناء اللعب دون الاستعانة بالنظر … إلخ. وكانت نتيجة هذا الاختبار أن نسبة حالات الغش والخداع كانت أكبر لدى البنات في معظم التمرينات. وقد لا يرجع هذا الاختلاف إلى فساد الخُلق، بل المرجَّح أن البنت قد تشعر بضعفها في مجال التنافس مع الصبي، فتلجأ إلى الغش والكذب لتعويض هذا الضعف، ولإرضاء نزعتها إلى الظهور والتفوق.

وإذا كانت نتائج هذا الاختبار تُميِّز البنين على البنات، فعَلى العكس من ذلك نجد البنات يتفوَّقن على البنين في السمات الأخرى، وهي التعاون والمثابرة وضبط النفس. وكانت أكبر نسبة للاختلافات بين الجنسَين في اختبار ضبط النفس، وهذا يُفسِّر لنا نجاح البنت في تحقيق التكيُّف المدرسي أكثر من زميلها.

ويمكننا أن نستقي بعض المعلومات عن التكيُّف الاجتماعي من نسبة عدد الجرائم والمخالفات القانونية لدى الجنسَين؛ فالنتيجة التي تؤيِّدها جميع الإحصاءات التي عملت في هذا الميدان هي أن نسبة الرجال أكبر بكثير من نسبة النساء، إلا في نوعٍ واحد من الجرائم، هي الجرائم والمخالفات الجنسية. ولا شك في أن ظروف الحياة لدى الرجل تُعرِّضه لارتكاب الجرائم والمخالفات أكثر من النساء؛ نظرًا لشدة التنافس بينهم. غير أن هناك عاملًا آخر يُفسِّر لنا هذا الاختلاف الكبير في عدد الذين تصدُر ضدهم الأحكام القضائية؛ فقد تبيَّن أن القضاة أكثر تسامحًا مع النساء المتَّهَمات منهم مع المتَّهَمين من الرجال.

على كل حال، فالواقع أن نسبة الإجرام في الرجال أكبر، وكذلك نسبة البنين من الأطفال المُشاكسين المُشكلين سواء في المدرسة أو في المنزل. ومن التصرفات السيئة التي يرتكبها البنين أكثر من البنات، نذكُر الهروب من المدرسة والتجول في الشوارع، الاعتداء على ممتلكات الغير، السرقة، تحدي السلطة والانقلاب على النظام، أعمال القسوة والمشاجرة، والعدوان العنيف.

وفضلًا عن أن هذه الحالات أكبر عددًا في البنين منها في البنات، فقد لُوحِظ أن عددها أكبر أيضًا في كل طفل على حِدَة من الصبيان، وأن معالجة الاعوجاج في البنت أيسر من معالجته في الصبي.

ومن بين العوامل التي ترجع إليها زيادة حالات السلوك المُشكل لدى البنين، العاملُ البيولوجي الذي يجعل الصبي أميَل إلى الاعتداء أو السيطرة من البنت. ونقصد بالعامل البيولوجي إفرازات الغدد الجنسية لدى الذكر؛ فقد دلَّت التجارب التي أُجريَت على الحيوانات، كما دلَّت دراسة حالات تأخر نضج الغدد الجنسية لدى الذكور، أن سلوك العدوان والسيطرة والعنف مرتبط بكمية الإفرازات الداخلية للغدد الجنسية.

وبما أن ميل الصبي إلى العدوان والمُشاجرة يظهر منذ الطفولة الأولى وفي رياض الأطفال، فلا بد أن يكون لتفوُّق الصبي في القوة العضلية والنفسية شأنٌ في إثارة العدوان والسيطرة. غير أن العوامل البيولوجية لا تعمل وحدها، بل تجد ما يؤيِّدها ويُثبتها في

الأوضاع الاجتماعية والمُعتقَدات السائدة عن كلٍّ من الجنسَين؛ فالأم تنصح ابنتها بألا تتشاجر مع الصِّبيان، وفي الوقت نفسه تُبدي إعجابها بابنها الصغير لأنه جريء يدفع عنه عدوان الآخرين بقوة وشجاعة، فما هو مشهور عن الصبي أو عن البنت في بيئةٍ ما يُشكل إلى حدٍّ كبير سلوك الأطفال لكي يُحقِّقوا في أنفسهم الصورة التي يتصوَّرها المجتمع عنهم. فهذا الإيحاء الجمعي شديد الأثر في الأطفال، خاصةً أنه يعمل عمله بطريقةٍ خفية مُتواصلة.

ومن اختبارات الشخصية التي طُبِّقت على البالغين من الرجال والنساء، اختبار برنرويتر Bernreuter الذي يقيس السمات الآتية: الحالات العصبية – الاكتفاء الذاتي – الانطواء – السيطرة – الثقة بالنفس – الصفة الاجتماعية.

وقد وُجد أن النساء أكثر عُرضة للمخاوف والحالات العصبية، أكثر انطواءً وخضوعًا، وأخيرًا أكثر ميلًا للتجمع والتعاون الاجتماعي؛ في حين أن الرجال أكثر اكتفاء وثقة بأنفسهم، وأكثر ميلًا إلى السيطرة.

ونجد في بحثٍ آخر مقارنةً تفصيلية بين البنين والبنات من حيث الحالات العصبية؛ فالحالات الآتية نِسبتها أكبر لدى البنات: مص الأصابع، قضم الأظفار، نوبات الغضب، اضطرابات النوم، وأخيرًا المخاوف على اختلاف أنواعها، وخاصةً الخوف من الحشرات والحيوانات والظلام والأمكنة العالية. أما في البنين فالنسبة أكبر في الحالتَين الآتيتين: بل الفراش ليلًا، واضطرابات الكلام والنطق.

إن كل هذه النتائج تؤيِّد بطريقةٍ تجريبيةٍ ما هو شائع في الآراء العامة عن طباعِ كلٍّ من الرجل والمرأة، والاتفاق هنا بين النتائج التجريبية والآراء الشائعة أكبر من الاتفاق في مجال القدرات العقلية؛ فقد سبق أن ذكرنا أن لا فرق بين الجنسَين في الذكاء، وأن الفروق التي تُشاهَد من حيث الإنتاج الفكري يرجع إلى حدٍّ كبير إلى عدم تكافؤ الفرص في المجتمع.

أما سبب الاتفاق بين العلم والرأي العام فيما يختصُّ بالسمات الخُلقية، فهو أن هذه السمات الخلقية تتأثَّر أكثر في الصفات العقلية بتأثير البيئة والتربية؛ فقد دلَّت بعض الدراسات التي تناولت القبائل البدائية على أن النظام الاجتماعي ونظام توزيع العمل بين الجنسَين قد يُخفِّف إلى حدٍّ كبير من نزعة الرجل إلى الاعتداد والسيطرة، في حين يزيد المرأة عدوانًا وسيطرة. ولكن على الرغم من تأثير البيئة والتربية، فهناك بعض الخصائص

الطبيعية التي تُميِّز بين الرجل والمرأة من الوجهات البيولوجية والنفسية والاجتماعية، وأن هذه الخصائص الطبيعية تحدُّ من تأثير البيئة؛ فالتربية المثالية هي التي تعتمد على التُّربة الأصلية مُحاولةً تنمية الاستعدادات الفطرية وتهذيبها وإعلائها، بحيث تتَّفق مع القيم السامية التي تُكافح الإنسانية في سبيلها؛ قيم العدالة والمحبة.

الفصل الثاني

سيكولوجية المرأة

(١) تطلُّع المرأة إلى الكمال

ليس من اليسير أن يقف الباحث موقفًا موضوعيًّا بحتًا في دراسته لسيكولوجية المرأة أو الرجل، كما لو كان يقوم بدراسة في علم الكيمياء أو الطبيعة؛ فبوصفه إنسانًا يُصدِر حكمًا على بني جنسه فإنه يميل من حيث لا يشعر إلى شيء من التحيز؛ فالباحث سواء تكلَّم عن جنسه أو الجنس الآخر مُتأثِّر بتجاربه السابقة، وبالصورة التي قد يكون قد اكتسبها منذ طفولته عن أبيه وأمه، وبالنموذج الذي تبلورت ملامحه وسماته خلال الخبرات التي عاناها في سن المراهقة، عندما كان يتلمَّس في الجنس الآخر ما يُرضي نهمه العاطفي، ويُشبع حاجته إلى العطف والحب الناشئ.

الواقع أن هناك سوء تفاهُم مُزمِن بين الجنسَين يرجع عهده إلى فجر التاريخ. وممَّا دعم سوء التفاهم هذا أن المُفكرين والمُشرعين، وخاصة المُؤرخين، كانوا من الرجال، وعندما تحدَّثوا عن المرأة كثيرًا ما وصفوها بالضعف والمكر والاحتيال، وغيرهما من الصفات التي يتَّخذها الضعيف للتغلب على القوي.

وحتى في الحياة اليومية نرى أن بعض الأساليب التي يستخدمها الآباء في تربية أطفالهم تخلق في نفوس الناشئين سوء التفاهم بين الجنسَين، وتجعل كل جنس يقف من الآخر موقف الاحتقار والازدراء، أو موقف التحفظ والحذر.

ومن واجبنا جميعًا أن نُزيل سوء التفاهم هذا، أو على الأقل أن نُحاول مُخلِصين التخفيف من حدَّته. وأول خطوة يجب أن نخطوها هي البحث عن منشأ هذا الخلاف في الرأي بين الجنسَين عندما يحكم كلٌّ منهما على الآخر. ويبدو لي أن السبب الرئيسي يرجع إلى محاولةِ كلٍّ منهما المُفاضلة بينهما؛ أيهما أفضل وأرقى وأكمل من الآخر؛ الرجل أم

المرأة؟ أيهما هو المثل الأعلى أو النموذج الذي يجب على الجنس الآخر أن يُحاكيه أو أن يُحققه في نفسه؟ إن هذه الأسئلة لا معنًى لها مُطلَقًا، وإن دلَّت على شيء فإنها تدل على سذاجة في التفكير، ولا يمكن أن تصدُر إلا عن شخصٍ يقف موقف الأطفال الذين لم يتمَّ بعدُ نُضْجهم الانفعالي؛ إذ إن المُفاضلة أو المُقارنة لا يمكن أن تقوم إلا بين شيئَين أو أمرَين خاضعين لنوعٍ واحد من القياس، وهل ينطبق ذلك على الرجل والمرأة؟ هل الاختلاف في الجنس اختلافٌ عرَضي كمي يُعبَّر عنه بالزيادة أو بالنقصان، أم هو اختلافٌ جوهري كالاختلاف الموجود بين نوع ونوع آخر؟

يوجد فريق يذهب إلى أن الفرق بين الجنسَين فرقٌ جوهري فطري يرجع إلى اختلافٍ أساسي في بناء الجرثومة التي ستكون إما ذكرًا أو أنثى، في حين أن فريقًا آخر يؤكِّد أن الفرق بين الذكر والأنثى هو فرق في الدرجة، وأن هناك سلسلة من الدرجات المتوسطة تصل بين الأنوثة والرجولة، وأن التطور يبدأ من صورة الأنثى ويتَّجه نحوَ شكلٍ أرقى هو كمال الرجولة؛ فإن المرأة في نظر أولئك القوم ليست إلا رجلًا ناقصًا لم يكتمل نموُّه.

وقد يردُّ بعضهم على هذا الرأي بأن الذكر في بعض الأنواع الحيوانية الدنيا يمكن الاستغناء عنه بالتخصيب الآلي، غير أن هذا النوع من الجدل هو ضرب من العبث عندما ننظر إلى طبيعة الإنسان المُتكاملة.[1] كل ما ينبغي أن نستوحيه من الدراسات البيولوجية هو أن الجنين في الإنسان عندما يكون في طور تكوينه الأول يحمل المعالم الأولى للجهازَين التناسليين للجنسين، ثم ينمو أحدهما ويضمر الآخر، فيتَّجه الجنين في نموه نحو صورة الذكر أو صورة الأنثى. على ذلك يمكن القول بأن أصل الرجل وأصل المرأة واحد، غير أن جسمَ كلٍّ منهما يسلك في نموه منذ مرحلة جنينية مُبكرة إما طريق الذكورة أو طريق الأنوثة؛ وذلك استعدادًا للقيام بوظائف مختلفة وإن كانت في النهاية مُتمِّمة بعضها بعضًا. وعلى ذلك الفرق في التكوين التشريحي وما يستتبعه من تخصُّص في الوظائف الفسيولوجية، تتوقَّف الفروق السيكولوجية الموجودة بين الجنسَين، سواء فيما يختصُّ بالدوافع والعواطف والصفات الخلقية، أو بنوع الذكاء وطريقة التفكير ومدى تأثره بالعوامل الانفعالية.

[1] راجع مقال المؤلف «الجنسية من الوجهة البيولوجية في ضوء المنهج التكاملي»، في «الكتاب السنوي في علم النفس»، لعام ١٩٥٤.

فالنمو الأمثل الذي يجب أن تُحققه المرأة هو اكتمال أنوثتها؛ وذلك باستخدام الوسائل المُلائمة لطبيعتها كمرأة. وكذلك فيما يختصُّ بالرجل.

وممَّا هو جدير بالذِّكر، بصددِ سعيِ كلٍّ من الجنسَين لتحقيق هدفه، أن المرأة تستهدف مثلًا أعلى يفُوق في صرامة مَطالبه وفي سموِّه المُطلَق المثلَ الأعلى الذي يستهدفه الرجل؛ فإن المرأة تتطلَّع أكثر من رفيقها إلى المُطلَق وإلى استكمال النقص؛ ولهذا السبب كان طريق الأنوثة أشد وُعورة من طريق الرجولة. وإزاء هذه الصعوبات التي تعترض تحقيق رسالتها كاملة كثيرًا ما تلجأ المرأة إلى التضحيات الضِّخام، وإلى إنكار ذاتها إلى حد البطولة الصامتة المُستترة وراء قناع من الرضا المُصطنَع.

إن هذا الجانب الهام بل الجوهري في نفسية المرأة، ليس من نسيج الخيال أو من وحي الشعر، بل هو حقيقةٌ واقعية أسفرت عنها الدراسات التحليلية منذ نصف قرن، فجاءت مؤيِّدة لشهادة التاريخ ولوحي الشعراء.

يقول فرويد مُنشِئ التحليل النفسي في بحثٍ نشره عام ١٩٣١ عن الوظيفة الجنسية عند المرأة: إن تحقيق التوازن لدى المرأة أشقُّ بكثير من تحقيقه لدى الرجل، وإن أمامها ثلاثة طُرُق أحدها هو الطريق السوي المؤدِّي إلى الأنوثة الواضحة المُستقرة، غير أنه أشق الطُّرق مَسلكًا، وأما الطريقان الثاني والثالث ففيهما شذوذ واعوجاج؛ فإما تشويه الخلق بتغلب عناصر الرجولة على الأنوثة، أو كف النشاط الجنسي وكبته وفصله عن الوظيفة التناسلية.

ولنتساءل الآن عن منشأ هذا التطلع الفائق إلى الكمال المُطلَق الذي يطبع المرأة بطابَعه الخاص، قد يقول بعضهم إن المرأة لم تقف هذا الموقف إلا كردٍّ فعل للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي فرضها عليها الرجل صاحب السلطة التشريعية وغيرها من السلطات، والتي جعلتها تعتقد وتشعر أنها كائنٌ ضعيفٌ ناقصٌ محكوم عليه أن يظل على الدوام قاصرًا. والآن وقد نهضت المرأة من سُباتها، وأخذت تُطالب بحقوقها المهضومة، وبالمُساواة التامَّة بينها وبين الرجل، نجدها راضية بأن تُخفِّف من وطأة هذا المثل الأعلى، مُشيرة إلى أن تسلك طريقًا أقل وُعورة من الطريق الذي رسمه لها الرجل.

إن هذا الدفاع لا يُصيب لُبَّ المشكلة؛ فهو ضرب من التفكير الجدلي السطحي الذي قد يُستخدَم بنجاح في الدعاية السياسية الرخيصة، ولكنه عديم القيمة من الوجهة العلمية؛ فإن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي تعيش فيها المرأة ليست هي العلة لشعور المرأة بالنقص، بل هي معلولة لعلةٍ أصلية يجب البحث عنها في طبيعة المرأة نفسها،

وفي تركيبها الجسمي، وفي وظائفها البيولوجية، وفي رسالتها من حيث هي متَّجِهة لنظامٍ طبيعي يشملها ويفُوقها، ومن حيث هي مُساهمة في النظام الاجتماعي الذي تعيش فيه.

فإذا أردنا أن نفهم تطلُّع المرأة إلى المُطلَق والكمال على حقيقته، يجب علينا أن نفهم طبيعتها الجسمية، وأن ندرس العوامل التي تُعين نموها من الوجهة التشريحية والفسيولوجية والبيولوجية، ثم بعد ذلك، وفي ضوء الحقائق التي تُقدِّمها لنا هذه الدراسة، ننتقل إلى دراسة العوامل التي تُعين نموها النفسي والاجتماعي. فلا يوجد أحد اليوم يستطيع أن يُنكِر الصلة الوثيقة التي تربط شروط النمو النفسي بشروط النمو الجسمي، ويتوقَّف استقرار النمو النفسي وثباته على مدى استقرار الوظائف الفسيولوجية وثباتها، ومن الحقائق التي لا تخفى على أحدٍ أن التوازن الفسيولوجي في المرأة أشد تعقدًا وأدق تركيبًا وأكثر تعرضًا للتغير والاختلال من التوازن الفسيولوجي في الرجل؛ فلا غرابة إذن في أن يكون التوازن السيكولوجي لدى المرأة أعسَرُ تحقيقًا من التوازن السيكولوجي لدى الرجل، ما دُمنا نُسلِّم بالارتباط الوثيق بين النفسي والجسمي وتبادُل الأثر بينهما.

(٢) طبيعة المرأة من الوجهة التشريحية

سنُقسِّم حديثنا عن طبيعة المرأة من الوجهة الجسمية، في مُقابل طبيعة الرجل، إلى ثلاث نواحٍ؛ أولًا: الناحية التشريحية؛ أي شكل الجسم من الخارج، ثم تركيب الأعضاء والأجهزة. ثانيًا: الناحية الفسيولوجية؛ أي دراسة الوظائف العضوية الخاصة بالمرأة. ثالثًا: الناحية البيولوجية؛ أي وظيفة المرأة بصدد الحياة؛ أي وظيفتها كأُمٍّ. وسنُشير في أثناء معالجة كل ناحية من هذه النواحي الثلاث إلى أثرِ كلٍّ من العوامل التشريحية والفسيولوجية في نفسية المرأة وسلوكها.

نتناول أولًا الناحية التشريحية السطحية الخاصة بشكل الجسم كما يبدو في نظر الأطفال؛ فمن المعلوم أن الأطفال يقُومون بمقارنة بعضهم ببعض، وممَّا يلفت نظرَهم الاختلافُ الموجود بين تركيب جسم الصبي الصغير وجسم البنت الصغيرة. وقد لاحظ علماء النفس أن البنت الصغيرة تُبدي اهتمامًا أكبر من الصبي في ملاحظة هذا الفرق، ويبدو هذا الفرق في نظر البنت على أنه نقص، وهي تُدرِك هذا الفرق بأنه نقص نظرًا لصِغر سنها وعدم اكتمال قُواها العقلية، وعجزها عن أن تفهم حكمة هذا الاختلاف في التركيب الجسمي. وممَّا يُضاعف أثر الشعور بالنقص لدى البنت الصغيرة موقفُ الكبار

الذين يُقلِّلون من شأن البنت ويرفعون من شأن الصبي. مِثل هذا الموقف يُشجِّع الصبيان المُشاكسين على التفاخر بما حبَتهم به الطبيعة من دلائل الذكورة والقوة. وحول هذا الشعور بالنقص الذي تُعانيه البنت الصغيرة، تُثار عواطف أخرى من حسد وعداوة وحقد نحو الجنس الآخر الذي يبدو في نظر البنت أسعد حظًّا منها.

أعترف أنه ليس من السهل قَبول مثل هذه الحقائق والتسليم بوقوعها، بل سيصل البعض إلى وصف هذا الكلام بأنه مجرد أوهام صادرة عن مُخيِّلةٍ مريضة مُنحرِفة. وإذا سلَّم جمهور المُعترِضين والمُعترِضات بأن الطفل حقًّا يُدرِك أوجُه الاختلاف أكثر من إدراكه وجه التشابه، وبأن البيئة فعلًا — وخاصةً في شرقنا العربي — ترفع من قيمة الصبي وتحطُّ من قيمة البنت؛ فإنهم مع ذلك يرفضون التسليم ببقاء هذه الانطباعات الأولية في نفس المرأة. الواقع أننا نُسلِّم أيضًا بزوال هذه الانطباعات والتأثيرات من شعور المرأة، غير أن الملاحظة الدقيقة لبعض ضروب السلوك لدى المُراهقة والمرأة البالغة، وكذلك المُشاهدات الإكلينيكية، تدل بصفةٍ قاطعة على بقاء هذه الانطباعات المُؤلِمة في اللاشعور، وعودتها من جديد أثناء الحياة الزوجية.

والآن بعد هذه النظرة إلى الشكل الخارجي ننتقل إلى التركيب التشريحي الداخلي؛ فأول ما نُلاحظه هو أن الجهاز التناسلي لدى المرأة أكثر تعقدًا وأدق تركيبًا وأشمل أثرًا من الجهاز التناسلي لدى الرجل.

فالمرأة بحكم تركيبها التشريحي، وبحكم وظيفة الحمل، مركَّزةٌ أكثرَ من الرجل حول نفسها، وحياتها الجنسية مُرتبِطة بعددٍ أكبر من الوظائف، أهمها وظيفة تكوين الجنين ووظيفة الرضاعة. ويترتب على ذلك بعض الآثار النفسية الهامَّة؛ فقد تتنازعها أحيانًا قوَّتان مُتضادَّتان: الاندفاع الجنسي من جهة، والخوف من الحمل من جهةٍ أخرى. وقد تتغلَّب القوة الثانية على الأولى؛ ممَّا يؤدِّي إلى بعض المتاعب النفسية، وإلى ألوان من القلق والانحراف.

ويؤدِّي تركيز المرأة حول نفسها إلى نوع من حب الذات، أطلق عليه علماء النفس لفظ النرجسية. وهذا المعنى مُستمَد من أسطورةٍ يونانيةٍ قديمة؛ أسطورة الشاب الجميل نرجس الذي كان يقضي الساعات الطوال في تأمُّل وجهه في الماء والاستمتاع بجماله، فغضِب الآلهة عليه، وحوَّلوه إلى الزهرة المعروفة الآن باسمه.

فلا شك في أن المرأة أميَلُ من الرجل إلى تأمُّل نفسها في المرآة وتجميل وجهها، بل هي تُبدي اهتمامها ببنات جنسها وبأزيائهن وملابسهن ومختلف وسائل التجميل. وينتج من

اهتمام المرأة الزائد بشكلها وجمالها ودرجة جاذبيتها شعورُها الحادُّ الواضح بنقائصها الجسمية؛ وبالتالي الصعوبة التي تُعانيها في إرضاء نفسها، وتحقيق مثلها الأعلى في الجمال والكمال.

وأخيرًا نُلاحظ في تركيب جسم المرأة إذا نظرنا إليه في شكله العام أنه يمتاز بوحدة البناء، وبقوة الترابط بين أجزائه، وبدرجةٍ عالية في الانسجام والرشاقة، حتى إن صورة الشكل الكلي تُخفي الأجزاء التي تُكوِّن هذا الشكل. أو بعبارةٍ أخرى، يمتاز جسم المرأة باندماج الأجزاء بعضها ببعض، كأنه أقرب إلى اللحن الموسيقي منه إلى الشكل الجامد المجسَّم.

وممَّا هو جدير بالذِّكر، أن لهذه الصفات التي نُلاحظها في المجال الجسمي ما يُناظرها في المجال النفسي؛ فكما أن أجزاء جسمها تنساب بعضها على بعض، كذلك نجد أنه من حيث التركيب العقلي لا توجد فواصل قاطعة بين عالم الفكر وعالم الحس وعالم العاطفة وعالم الحكم الأخلاقي والاجتماعي؛ فكل هذه النواحي مُندمِجةٌ بعضها ببعض، ومصبوغةٌ كلها بصبغةٍ عاطفية. وإذا كان منطق الرجل يتميَّز بنزعته العقلية الاستدلالية، فإن منطق المرأة هو في صميمه منطق العاطفة. وإذا كان ذكاء الرجل ذكاءً تحليليًّا، فإن ذكاء المرأة أميَلُ إلى التأليف والشمول؛ فهو قائم على نوعٍ من الحدسِ والإلهامِ هو ضربٌ من الفِراسة السريعة، ومن البصيرة التي تستشفُّ بواطن الأمور دون أن تُدرِك تمامًا كيفية هذا الاستبصار والاستشفاف. وعندما تُبدي المرأة حكمها على الأشخاص، فكثيرًا ما يعتمد رأيها على ضرب من المشاركة الوجدانية والتعاطف؛ أي إنها تحكم حسب ما تشعر به من جاذبيةٍ نحو موضوع الحكم أو من نفور منه. وإذا فقدت هذه القدرة على التجاوب العاطفي، فإنها تفقد في الآن نفسه قدرتها على فهم المواقف الإنسانية وتقديرها، ولا يعود إليها حسها السيكولوجي الدقيق إلا إذا نبضت فيها من جديدٍ حياتها العاطفية.

وفي ختام هذا الحديث، يجب التنبيه إلى أن هذه السمات المختلفة لا تظهر واضحةً نقية إلا في حالة الأنوثة المثالية الكاملة. وبما أن هذا المثل الأعلى للأنوثة من العسير أن يتحقَّق كاملًا، وأن النساء يشتركن في هذا المثال الأعلى بدرجاتٍ مُتفاوتة؛ فإنه يترتَّب على ذلك اشتراكهن أيضًا بدرجاتٍ مُتفاوتة في هذه السمات السيكولوجية التي ذكَرنا.

ومهما يكن من أمر هذا التفاوت، فإن الوصف الذي قدَّمناه لطبيعة المرأة من الوجهة التشريحية، وما يترتَّب عليها من سماتٍ نفسية، يظل صحيحًا في مجمله؛ ولذلك ينبغي على الوالدَين، وعلى كل من تدعوه وظيفته في المجتمع إلى العناية بتربية البنت، أن يُراعوا

هذه الحقائق الأساسية، وأن يعملوا على أن تسير البنت في نشأتها طبقًا لطبيعة الأنوثة، وأن يحُولوا دون تنمية النزعات الرجولية التي قد تستسلم لها.

(٣) طبيعة المرأة من الوجهة الفسيولوجية والبيولوجية

ذهبنا في الفقرة السابقة إلى أن السمات السيكولوجية والاتجاهات العقلية مرتبطةٌ إلى حدٍّ كبير بالشروط والعوامل التشريحية من شكل وبناء وتركيب، وقد حصرنا هذه السمات والاتجاهات في النقط الآتية:

أولًا: إحساسها بالنقص العضوي، وما يُسبِّبه هذا الإحساس من قلق وغيرة وحسد وعداوة.

ثانيًا: تركيز المرأة حول نفسها ونزعتها إلى النرجسية، وما يترتَّب على ذلك من اهتمام بجمال جسمها وجاذبيته؛ وبالتالي اهتمامها بأساليب الدلال ووسائل الإغراء.

ثالثًا: الدور الهام الذي تلعبه العاطفة في توحيد نشاطها العقلي واتجاهاتها النفسية، وما يمتاز به ذكاؤها من صفة الشمول والتأليف، واعتماد حكمها العقلي على الفِراسة والحدس.

كما لاحظنا أن طبيعة المرأة من الوجهة التشريحية تمتاز بالترابط الوثيق وبوحدة البناء. أما من وجهة الشروط الفسيولوجية، فإن الأمر الذي يسترعي انتباهَنا هو ضعف استقرار هذه الشروط، وتعرُّضها للتغير السريع أثناء المراحل التي تجتازها المرأة؛ مرحلة الصِّبا ثم مرحلة البلوغ واكتمال النمو ثم مرحلة الأمومة. وهذه المراحل مختلفةٌ بعضها عن بعض اختلاف المراحل التي تجتازها الفراشة في نموها منذ أن كانت دودة ثم يرقة.

والوظيفة الهامة التي تخضع لتغيراتٍ دورية كل شهر هي وظيفة تكوين البويضة. ولا يقتصر أثر تكوين البويضة وما يتبعه من عملياتٍ فسيولوجية على إحداث الشعور بالتعب، بل هناك آثارٌ أعمق ترجع إلى إفراز الهرمونات الخاصة بالأنثى دون الذكر. وقبل أن نُبيِّن أثر هذه الهرمونات في كِيان المرأة من الوجهة الفسيولوجية والوجهة النفسية، يجدر بنا أن نتحدَّث قليلًا عن طبيعة هذه الهرمونات، وعن الغُدد التي تُفرِزها.

وإذا نظرنا إلى مجموع الوظائف التي تقوم بها أجهزة الجسم المختلفة نُلاحظ أنها تمتاز بالتكامل؛ أي بالتعاون الوثيق بينها وبانسجام عملها وتآزُر آثارها. ويشتمل الجسم على أجهزةٍ خاصة لتحقيق هذا التكامل؛ الجهاز العصبي من جهة وجهاز الدورة

الدموية من جهةٍ أخرى. فالجهاز العصبي يُنظِّم التنبيهات الحسية والحركية، مُحقِّقًا التآزر بين العضلات والتكيُّف مع البيئة الخارجية. أما جهاز الدورة الدموية فوظيفته الأساسية تغذية جميع خلايا الجسم، وإبقاؤها معَدَّة للقيام بعملها بدرجةٍ متَّزِنة من النشاط. ويقوم التكامل الذي يُحقِّقه جهاز الدورة الدموية على أُسسٍ كيميائية، هذا فضلًا عن الارتباط الوثيق بين الجهاز العصبي والجهاز الدوري.

وقد اكتشف العلماء منذ نصف قرن تقريبًا عاملًا هامًّا من عوامل التكامل الكيميائي، هو مادةٌ كيميائيةٌ عضوية سُمِّيت بالهرمون، تُفرِزها غددٌ معيَّنة صغيرة الحجم، تختلف في تركيبها عن الغدد الأخرى التي كانت معروفة من قبلُ، مثل الغدد اللعابية والغدد الدمعية والغدد العرقية. وقد سُمِّيت الغدة المُفرِزة للهرمون بالغدة الصمَّاء؛ أي المُغلَقة على نفسها دون أن تكون لها قنواتٌ خارجية لتوصيل الإفرازات، بل هي تُفرِز مادتها مباشرة في الدم بفضل العدد الكبير من الأوعية الدموية الدقيقة التي تتخلَّلها. وأهم هذه الغدد الصمَّاء هي الغدة النخامية في الدماغ، والغدة الدرقية في الرقبة، والغدة الأدرينالينية الموجودة فوق الكُلية، والغدد الموجودة في البنكرياس والتي تُفرِز هرمون الأنسولين، وأخيرًا الغدد التناسلية التي تُفرِز إفرازًا داخليًّا فوق إفرازها الخارجي.

وهذه المواد الكيميائية العضوية التي تُفرِزها الغدد الصمَّاء تؤدِّي دورًا هامًّا في تنظيم النمو الجسمي والعقلي، كما أن لها أثرًا كبيرًا في الحالة المزاجية والوجدانية عامة، والانفعالية بوجهٍ خاص.

وسنتحدَّث بشيءٍ من الإسهاب عن الغدة التناسلية؛ نظرًا للدور الهام الذي تؤدِّيه في حياة المرأة من الوجهتَين الجسمية والنفسية؛ فالمِبيض كما هو معلومٌ هو العضو الذي يُطلِق كل شهر البويضة بعد أن تكون قد نضجت وأصبحت صالحة للتخصيب، ولكن المِبيض يُفرِز أيضًا نوعَين من الهرمون، الواحد بعد الآخر في فتراتٍ معيَّنة، يُسمَّى الهرمون الأول الفليكولين والثاني لوتيين، ولكلٍّ منهما أثرٌ خاص يتجاوَز حدود العلميات الجسمية إلى الحالة النفسية والمزاجية، حتى إن بعضهم سمَّى الهرمون الأول بهرمون الحب والثاني بهرمون الأمومة، كأن المرأة في مدى كل شهر تمرُّ بمرحلتَين نفسيتين مختلفتين؛ مرحلة الزوجية ثم مرحلة الأمومة. وهذا يُفسِّر لنا بعض ما يُصيب المرأة من تقلب في المزاج، من الانتقال من حالة الفرح والاطمئنان والهدوء المتَّزِن إلى حالة الكآبة والقلق والتوتر؛ فهي كالآلة الموسيقية المهدَّدة ببعض الخلل، والتي تتطلَّب باستمرارٍ تنسيقَ أوتارها برفق ولين، ويقع عبء هذا التنسيق على كاهل الزوج الذي قد تصدمه أحيانًا هذه التقلبات

الفجائية في مزاج زوجته؛ غير أنه إذا فهم تمامًا هذه الشروط الفسيولوجية العميقة التي تخضع لها المرأة، يصبح من السهل عليه أن يُساعد زوجته على أن تجتاز بسلامٍ هذه الأزمات الدورية.

وهذا يجعلنا ننتقل إلى التحدث عن طبيعة المرأة من الوجهة البيولوجية؛ أي من وجهة وظيفتها بصدد الحياة وبقاء الجنس؛ أي وظيفة الأمومة.

وحالة المرأة بصدد وظيفة التناسل وبقاء الجنس أكثر تعقدًا من حالة الرجل؛ فالمرأة كما قلنا تقع تحت تأثير هرمونَين مختلفين؛ هرمون الحب وهرمون الأمومة. وقد يكونان في حالة تضافُر وتعاوُن أحيانًا، وفي حالة تنافُر وتضادٍّ أحيانًا أخرى، كأن المرأة تتذبذب بين قطبَين؛ بين الحب من جهة، وبين الأمومة من جهةٍ أخرى، ووظيفتها في كلتا الجهتَين مُتعدِّدة النواحي والأدوار. وقد تكون هذه الأدوار أيضًا أحيانًا مُتضافرة مُتعاونة، وأحيانًا أخرى مُتنافرة مُتضادَّة؛ فهي تقوم بدور الزوجة نحو زوجها وبدور الأم نحو أبنائها. وسوف نُشير إلى أنواع الصراعات التي تنشأ من ازدواج دور المرأة، وكيف قد يكون أحيانًا من العسير التوفيق بينهما، وتحقيق التوازن والعدالة بين مَطالبِ كلٍّ من الزوج ومن الابن.

ثم إن هناك ازدواجًا في موقف المرأة من حيث هي زوجة تنشُد الحب؛ فعَليها في بادئ الأمر أن تلعب دورًا إيجابيًّا فعَّالًا، وميلها الطبيعي إلى التجميل واستخدام أساليب الإغراء والجذب يُساعدها على القيام بهذا الدور، ثم عليها في نهاية الأمر أن تستسلم، وأن تقبَل طيِّعةً راضيةً ما يبدو في الظاهر أنه هزيمة، في حين أنه في واقع الأمر تلبية المرأة لنداء الحياة الجاهدة في البقاء.

وهذه النقطة الأخيرة جديرة بأن تستوقفنا قليلًا؛ لأنها تكشف عن أعمق سر من أسرار طبيعة المرأة؛ فهي ترغب وتخشى في آنٍ واحد كأن هناك غريزةً مضادَّة لغريزة الجنس، ولا يتم تغلُّب غريزة الجنس إلا إذا ضحَّت المرأة بأنانيتها وحبها لذاتها. وهذه التضحية أشق على المرأة المُتمدنة منها على المرأة التي تعيش عيشةً ساذجة طبيعية؛ غير أن سعادتها الحقيقية تتوقَّف في نهاية الأمر على مدى إخلاصها وعمق تضحيتها.

ومن الواضح جدًّا أن هذا الميل إلى البذل والتضحية يظهر ويقوى عندما تصبح الفتاة قادرة على تأدية وظيفتها البيولوجية. نعم، إن البنت الصغيرة تميل في لعبها إلى مُحاكاة دور الأم؛ فهي تفرح عندما يُهدى لها عروسةٌ صغيرة تُعنى بها وتُعاملها كأنها طفلةٌ، فتَحيك لها الملابس، وتُهيئ لها فراشها، وتُراقب نومها مُخاطِبةً إياها أحيانًا بلطف

وتدليل، وأحيانًا أخرى بعنف وصرامة، وغير ذلك من أساليب اللعب المستحبَّة لدى البنت؛ غير أنها لا تشعر في الواقع بما يُناسب هذه المواقف من عواطف وانفعالات؛ فالطفلة حتى السنوات الأولى من مرحلة المراهقة تكون من الوجهة العاطفية مركَّزةً حول نفسها، كأنها في حاجة إلى كل طاقتها النفسية لتدعيم شخصيتها الناشئة وإثبات ذاتها، ولا ينمو فيها الميل إلى البذل والتضحية إلا عندما تنضج وتصبح صالحة للقيام بوظيفة الأمومة.

غير أننا نعود فنُقرِّر أن رسالة المرأة ليست مقصورة على ما تبذله من تضحيات في سبيل وظيفتها البيولوجية من حمل ورضاعة ورعاية أطفالها؛ فقبل كل ذلك إن من حقها أن تحظى بحياةٍ زوجيةٍ سعيدة، وبأن تجد في حب زوجها لها وفي حبها لزوجها ما يُرضي حاجاتها الوجدانية من لذة وسرور، ورغباتها العاطفية من حب واطمئنان وتقدير. وسوف نرى عند حديثنا عن الحب والأمومة أنه من المُحال الفصل بينهما، وأن حق المرأة في الحب لا يقلُّ عن حقها في الأمومة، وأن فقدان أحدهما لا يمكن أن يُعوِّضه الآخر إلا إلى حدٍّ ما، وعلى حساب سعادتها الحقَّة وتوازنها النفسي.

(٤) سيكولوجية المرأة من الوجهة العاطفية

أشَرنا فيما سبق إلى العلاقة الوثيقة الموجودة بين التركيب الجسمي والوظائف الفسيولوجية الجنسية، وبين بعض السمات النفسية التي تكون أكثر وضوحًا في المرأة منها في الرجل، ولم نُغفِل أثر البيئة والتربية في نمو هذه السمات أو تعطيلها أو تشويهها. ويظهر أثر البيئة واضحًا عندما نتأمَّل تطوُّر المرأة من الوجهة العاطفية؛ فالعواطف من أهم دوافع السلوك، ومن العوامل الفعَّالة التي تُعين نوع العلاقة بين الأفراد وشدة هذه العلاقة. ويجب أن نذكُر أن تكوين العواطف لا يرجع إلى أثر البيئة فحسب، بل هي تقوم أولًا على ما زُوِّد به الإنسان من ميولٍ فطرية تمتزج جذورها النفسية بالجذور الفسيولوجية من إحساساتٍ مُتنوعة، ومن ضروب الاستجابات التي تؤدِّيها العضلات والغدد.

ومن أهم هذه الإحساسات الفطرية التي ستدخل في تركيب العواطف الإحساسُ باللذة والإحساس بالألم. أما الاستجابات العضلية فتكون إما بالبسط أو بالقبض، بالإقدام أو بالإحجام. ومن هذه المواد الأولية من إحساسات واستجابات وما وراءها من ميول ودوافع فطرية، ستتكوَّن العواطف متَّخِذةً أحيانًا صورةَ الانفعال، أو أحيانًا أخرى صورةَ الاتجاه الوجداني المُستقر إلى حدٍّ ما. وممَّا يُساهم في تعقيد الانفعالات ونمو العواطف وتطورها،

العواملُ العقلية من إدراك وفهم وتذكُّر وتخيُّل وتفكير، والتي تنشط بتأثير المواقف الاجتماعية المختلفة التي تُحيط بالمرء منذ طفولته الأولى.

هذه المقدمة تُمهِّد لنا السبيل إلى فهم تطوُّر الحياة العاطفية.[٢] وتنمو هذه الحياة في صورةٍ واحدة عند الصبي، وعند البنت في السنوات الثلاث الأولى، ثم تظهر بينهما بعض الاختلافات الهامة سنتحدَّث عنها بعد الكلام عن المرحلة الأولى المشتركة التي تنتهي في أواخر السنة الثالثة من عمر الطفل.

يسير التطور الوجداني في مجالَين مُتميزَين أحدهما عن الآخر في بادئ الأمر، ثم يتم المزج والتكامل بينهما كلما تقدَّم المرء نحو النضج العاطفي، وهذان المجالان هما حسب تاريخ تنشيطهما المجال الحسي أولًا، ثم المجال العاطفي الذي يقوم في بعض أسسه على المجال الأول.

نُلاحظ في المولود الحديث أن معظم نشاطه يدور حول وظيفة التغذية؛ فهو بمثابة جهاز هضمي فحسب، وسائر الوظائف الأخرى من حسية وحركية ليست إلا خدمة لهذا الجهاز. والحواس التي تكون أكثر نشاطًا من غيرها هي الذوق والشم واللمس، ويكون نشاط هذه الحواس وما يُصاحب تنبيهها من حركات مركَّزًا في بادئ الأمر في الفم، وهو مدخل الجهاز الهضمي؛ ففي أثناء الرضاعة يقوم الرضيع بحركات الامتصاص التي تُسبِّب له لذةً معيَّنة، وهو في الوقت نفسه يستمتع بما يُحسُّه من دفء عندما تضمُّه أمه إلى صدرها؛ وعلى ذلك تكون منطقة الفم المركز الأول للإحساس باللذة، كما قد تكون أحد مراكز الإحساس بالألم والتقزز عندما تُوضَع في فمه مادةٌ مُرة مثلًا.

ثم خلال النصف الثاني من السنة الأولى تصبح منطقةٌ أخرى مركزًا جديدًا لهذه الإحساسات من لذة وألم، وهذه المنطقة الجديدة هي الطرف الآخر من القناة الهضمية. وفي أثناء تدريب الطفل على النظافة فإنه يختبر ألوانًا جديدة من اللذة والألم، ويبدأ يفهم دلائل الرضا أو السخط الصادرة من أمه. وأخيرًا في أواخر السنة الثالثة يكتشف الطفل منطقةً ثالثة يتركَّز فيها الإحساس باللذة، هي المنطقة التناسلية.[٣]

---

[٢] انظر «مراحل النضج العاطفي والاجتماعي» في كتاب «مبادئ علم النفس العام» للمؤلف، ص٣٥٠–٣٥٤، الطبعة الثانية ١٩٥٤، دار المعارف بمصر.

[٣] راجع بهذا الصدد مقال المؤلف «نمو الطفل العقلي وتكوين شخصيته» في «مجلة علم النفس»، المجلد الثاني، يونيو ١٩٤٦، ص٣–٢٤، الناشر دار المعارف بمصر.

وفي أثناء هذه السنوات الثلاث تبدأ العلاقات الاجتماعية تتكوَّن بين الطفل وبين أفراد أسرته، وأقوى هذه العلاقات هي التي تربطه بأمه، وليست هذه العلاقة بالعلاقة البسيطة؛ فالأم هي مصدر اللذة للطفل، وهي أيضًا مصدر الألم والحرمان أحيانًا، ولكن بعد أن يكتشف الطفل في جسمه المنطقة التناسلية، ويأخذ في البحث عن موضوعٍ خارجي للحب بعد أن كان حبه مركَّزًا حول جسمه، يحدث اختلافٌ هام في التطور العاطفي لدى كلٍّ من الصبي ومن البنت.

فإن طاقة الحب التي أخذت تشعر نحو الخارج تتَّجه نحو شخص من الجنس الآخر، كأن في هذا الاتجاه تمهيدًا للاختيار الطبيعي الذي سيقوم به البالغ فيما بعدُ تلبيةً لنداء الحياة الجاهدة في البقاء.

فالطفل الذكر سيحتفظ بأمه كموضوعٍ خارجي لحبه، أما البنت الصغيرة فإن تطوُّرها العاطفي أكثر تعقيدًا ووُعورة؛ فهي كرضيعةٍ متعلقةٌ بأمها، ومرتبطة بها برباطاتٍ حسية وعاطفية، فعَليها لكي تسير وفقًا لقانون تطوُّرها الطبيعي أن تُوجِّه عاطفتها نحو الأب، وأن تقبل لا شعوريًّا ما تُحدِثه من حرج وقلقٍ منافستُها لأمها نتيجةً لتحويل عاطفتها نحو أبيها، ولكن يجب أن نؤكِّد أن موقف التنافس هذا لا يتنافى مع قيام عواطف المحبة والحنان نحو الأم. قد يبدو ذلك تناقضًا، ولكن ذلك هو قانون الحياة العاطفية؛ أن تجتمع العاطفتان المتضادَّتان في شخصٍ واحد؛ إحداهما شعورية والأخرى لا شعورية. وقيام هذا التناقض العاطفي في الإنسان هو من أهم عوامل الصراع النفسي الكامن في كل شخص، والذي قد يتفجَّر عندما يختلُّ التوازن النفسي، أو يُصاب المرء بصدمةٍ عنيفة لا يقوى على تحملها.

ولكن تعلُّق البنت الصغيرة ليس سوى مرحلة من مراحل تطوُّرها العاطفي، ويقتضي التطور الطبيعي أن تتحوَّل طاقة الحب من الأب إلى الشاب الذي ستختاره الفتاة ليكون شريك حياتها وأب أبنائها. أما إذا ظلَّت مُثبتة في حبها اللاشعوري نحو أبيها، أي إذا وقف تطوُّرها العاطفي عند هذه المرحلة الطفلية، فستكون معرَّضة للشذوذ والانحراف نظرًا لعدم إدماج التيارَين الحسي والعاطفي وعدم تكاملهما؛ فهي بالغة من الوجهة الحسية، ولكنها لا تزال طفلة من الوجهة العاطفية. وكثيرًا ما يؤدي عدم النضج العاطفي إلى تعطيل الوظيفة الحسية، وما يجب أن يُصاحب تنشيطها من لذة وسرور.

إن الحقائق الخاصة بطبيعة المرأة من الوجهة العاطفية هامةٌ جدًّا يجب أن تسترعي انتباه المُربين. وإذا ذكَرنا ما تُعانيه البنت من شعور بالنقص، يتَّضح لنا أن تطوُّر المرأة

النفسي أكثر صعوبة من تطوُّر الرجل؛ وعلى ذلك تكون تربية البنت أشقَّ من تربية الصبي، وتتطلَّب عناية أكبر وفهمًا أدق؛ لكي نضمن لها في المستقبل حياةً سعيدة متَّزِنة. وإننا لا نُبالغ إذا قرَّرنا أن بعض الحركات التحريرية التي تدعو إليها بعض زعيمات الأحزاب النسائية المُتطرفة، صادرةٌ عن عُقدٍ نفسية لم تجد حلها الطبيعي، فصارت تبحث عن وسائل التعويض في ميادين تفرض على المرأة أعباءً لا تتلاءم مع طبيعتها؛ فهي وسائل تعسفية للتعويض، إن أرضت المرأة في بادئ الأمر فإنها لا تلبث طويلًا حتى تُضيف ألوانًا جديدة من الشقاء إلى الشقاء الذي قد تُعانيه نتيجة لجهل المُربين، أو لما يُعانونه أنفسهم من انحرافاتٍ نفسية.

وتوضيحًا لما سبق سنُطبِّق الحقائق التي استخلصناها حتى الآن في كلامنا عن الحب ومشكلات الزواج في الفصل القادم.

الفصل الثالث

الحب ومشكلات الزواج

(١) هل الحب إثم؟

من أبرز أوجه التطور التي نُشاهدها في مجتمعنا منذ حواليَ ربع قرن، خروجُ الفتاة من الدائرة الضيِّقة التي كانت تعيش فيها داخل المنزل إلى الحياة الاجتماعية الخارجية؛ فهي الآن تلتقي بالشاب في مدرَّجات الجامعة، وتشترك معه في الحفلات والرحلات وغيرها من أوجه النشاط الاجتماعي. ومن جهةٍ أخرى اتسعت أمام الفتاة العصرية ميادين جديدة للعمل ولكسب العيش؛ فهي قد تكون مُعاوِنة للرجل، وقد تكون مُزاحِمة له تريد أن تقتحم أبوابًا جديدة بِاسم ما اكتسبته من علم، وما أبرزته من قدرة على القيام بأعمالٍ كانت وقفًا على الرجال، سواء في مجال الأعمال الحرة أو في القضاء والسياسة. ويبدو أن الدافع الأساسي للقيام بمثل هذه الحركة ليس في الواقع ضرورة كسب العيش فقط، بل الرغبة المُلحَّة الغامضة في التحرير وطلب الاستقلال وإثبات شخصيتها.

ولا شك في أن مثل هذا التطور الإجباري الخطير قد أدَّى إلى حل بعض المشاكل التي كانت تُعانيها المرأة، ولكنه أثار في الوقت نفسه مشاكل جديدة، أو على الأقل زاد من حدَّة بعض المشاكل التي تنطوي عليها طبيعة المرأة ورسالتها الأصلية في الحياة؛ فإذا كانت حركة التحرُّر والاستقلال قد أدَّت إلى إثبات شخصية المرأة في الوجهة الاجتماعية، فكثيرًا ما يتم هذا النجاح الاجتماعي على حساب شخصيتها النفسية وتوازُنها الوجداني العاطفي.

ليس غرضي البحث في حركة تحرير المرأة والحكم عليها، بل الكشف عن بعض المشاكل التي تعترض المرأة في حياتها الجديدة، وتشخيص هذه المشاكل، والإشارة إلى طُرق معالجتها وحلها. وفيما يلي عرضٌ وجيز لحالةٍ نفسية من الحالات التي ترد للعيادات

السيكولوجية؛ حالة تبدو في بادئ الأمر غريبة غير أننا سنُحاول فهمها وتعليلها. قال لي السيكولوجي الذي قصَّ عليَّ هذه الحالة:

جاءتني مرةً طالبةٌ جامعية وهي في شبه ثورة، وقالت لي: «إن حياتي أصبحت لا تُطاق، إني أصبحت عاجزة عن متابعة المحاضرات واستذكار الدروس والامتحان على الأبواب، وأنا في السنة النهائية؛ فمستقبلي مهدَّد، وأخشى أن يضيع ما كنت آمله من نجاح وتفوق في خوض مُعترَك الحياة العامة التي تنتظرني.»

فحاولتُ أن أُهدئ من عصبيتها، وسألتها عن سبب انفعالها وتأثرها: «هل اقترفتِ ذنبًا؟ هل أساء أحد إليك؟»

– «لم يُسئ إليَّ أحد، ولم أُسئ إلى أحد، بل أعتقد أنني ارتكبت ذنبًا لا يُغتفَر، خاصة وأني طالبةٌ جامعية كما تعلَم!»

– «وما هو هذا الذنب يا آنسة؟»

فقالت بعد فترة: «تصوَّرْ أنني بدأت أشعر بشعورٍ غريب نحو أحد زملائي، وأخشى أن يكون هذا الشعور هو الحب.»

فاحمرَّ وجهها، ولا أدري إذا كان سبب هذا الاحمرار هو الغيظ أو الخجل أو الحب نفسه. وكأنها شعرت باحمرار وجهها، فحاولت إخفاءه بتصنُّع الترفع وعدم المبالاة، وظهرت على ملامحها إشاراتٌ خفيفة من القسوة.

– «وهل الحب ذنب؟»

– «هو على الأقل من دلائل الضعف والخذلان، خاصةً عندما يتَّخذ هذه الصورة الخيالية التي وضعها الشعراء، والتي أصبحت لا تتَّفق مع عصرنا الذي يمتاز بالكفاح والمنافسة والروح الواقعية.»

تُصوِّر لنا هذه الحالة الصراع الذي يقوم في نفس الفتاة عندما يختلُّ التوازن بين مطالب القلب وبعض المطالب الاجتماعية، وتكون الفتاة عاجزة من التوفيق بينها. وأعتقد أن أقرب حل لهذه المشكلة هو أن نُحاول الكشف عن دوافع الحب لدى المرأة، والوقوف على دلائل الحب عندما يكون صادقًا صحيحًا، وسنقصُر الحديث على أهم مظاهر الحب الكامل عندما يقتحم قلب الفتاة، ويغمره من كلِّ جانبٍ دون مقاومة أو انحراف.

تغنَّى الشعراء بالحب ووصفوه وصفًا رائعًا جميلًا، وحلَّله الأدباء في قصصهم، وحاولوا تحديد وُجوهه العديدة. ويبدو أن الكلمة الأخيرة الشافية لم يقُلها بعدُ أحد، كأن

الصمت في هذا المجال أفصح من الكلام. هل محكوم على الحب أن يظل لغزًا مُغلَقًا وسرًّا غامضًا؟ وإذا كان الشعراء لم ينجحوا في التعبير عن كُنْهه وجوهره، فهل يحقُّ للعلماء أن يقولوا كلمتهم في هذا المجال؟ ألا يخشى أن تُزيل كلمتهم الجافَّة ما يُحيط بالحب من رونق وجاذبية؟

الحق أن علماء النفس، وخاصةً علماء التحليل النفسي، قد نجحوا في إماطة اللثام عن بعض أسرار الحب، وهم متَّفِقون مع الشعراء والقصصيين في وصف علاماته الصادقة، ولكنهم ذهبوا إلى أبعد من غيرهم في تعليل دوافعه، وتفسير وجوهه المختلفة المُتعددة، السويَّة منها والشاذَّة.

ويمكن تلخيص أهم دلائل الحب الصادق الكامل في النقط التالية:

أولًا: الشعور الذاتي بالسعادة. ولتفسير هذا الإحساس بالسعادة يجب أن نذكُر ما يقوله التحليل النفسي عن تركيب النفس الإنسانية؛ فالذات الشاعرة أو الأنا شبيهةٌ بساحة قتال تتصارع فيها القُوى الغريزية اللاشعورية والانفعالات المكبوتة، مع قوًى أخرى هي أيضًا لا شعورية تُكوِّن ما يعرف بالأنا الأعلى، وهو أشبه ما يكون بالضمير الخلقي البدائي الذي تكوَّن منذ الطفولة الأولى بتأثير التربية؛ من أوامر خلقية، والتزامات يفرضها الوالدان على الطفل لكي يصبح اجتماعيًّا بمقاومة أنانيته وحبه لنفسه. وكثيرًا ما يكون الأنا الأعلى صارمًا في معاملته للذات الشعورية. وإذا كان التوتر بين الأنا الأعلى شديدًا نتج عنه الألم والقلق والشعور بالإثم. وبالعكس، عندما ينخفض هذا التوتر تعود الراحة إلى النفس، وتشعر بالسعادة.

والحب في نظر المُحلِّلين هو إسقاط الأنا الأعلى على المحبوب، كأن الشخص عندما يُحب يبحث عن نفسه في صورة المحبوب؛ ففي حالة الحب السعيد، أي الحب المُتبادَل، يكون المحبوب الذي يُمثِّل الأنا الأعلى راضيًا عن الآخر. وهذا يُفسِّر لنا حالة السعادة والاطمئنان التي يحياها الشخص.

ولكن هذه السعادة لا تكون دائمًا صافيةً مُستقرة، بل يتخلَّلها فتراتٌ من الشك في صحة اختيار موضوع الحب، كأن هناك في النفس نزعةً إلى التعذيب الذاتي تُقاوِم الميل إلى السعادة القصوى.

وبما أن الشخص الذي يُحب يبحث إلى حدٍّ ما عن نفسه، أي بما أن المحبوب هو صورة للذات، فمن الطبيعي أن يُغالي الشخص في قيمة محبوبه؛ ولذا قيل إن الحب أعمى. ويترتَّب على هذه المغالاة في قيمة المحبوب التقليلُ من قيمة الواقع، وعدم الخوف من العالم

الخارجي، والشعور بالقوة في مُقاومة الصعاب والتغلب عليها؛ إذ إن ما دام الأنا الأعلى راضيًا عن هذا الحب، وبما أن الأنا الأعلى يُمثِّل في النفس اللاشعورية سلطة الوالدَين، فلا بد أن تكون النفس راضيةً مُطمئنة لا تخشى شيئًا.

وإذا كان حب الآخر هو في نهاية الأمر حبًّا ذاتيًّا، فمن الطبيعي أن ينحصر الحب في شخصٍ واحد، ويتركَّز فيه دون غيره، وأن يصبح المُحب تابعًا كليةً للمحبوب، محاولًا دائمًا أن يتجنَّب دواعي التوتر والخلاف خوفًا من أن يفقد السعادة والاطمئنان.

وأخيرًا لا تكمل صورة الحب إلا بالإشارة إلى ما يعتري المُحب من تغيير في سلوكه الخارجي من جهة، ومن مضمون تأمُّلاته وتخيُّلاته من جهةٍ أخرى؛ فلا يكون الحب صادقًا إلا إذا اصطبغ السلوك والتفكير بصبغةٍ عاطفية، وصاحَبته حالاتٌ انفعالية خاصة من عطف وحنان، تمتزج فيها دوافع الحياة العميقة بالعواطف والحركات المعنوية اللطيفة.

وإذا عُدنا الآن إلى حالة الفتاة التي ذكَرناها في بدء هذا الحديث، وجدنا أن مشكلتها تعود إلى عوامل لا شعورية ترجع إلى الطفولة، وإلى تكوين ما سمَّيناه بالأنا الأعلى. فهي تُعاني توترًا عنيفًا بين الجانب الشعوري في نفسها والجانب اللاشعوري؛ فهي تميل إلى تعذيب نفسها، وإنكار ما يجب عليها أن تقوم به، في سبيل إرضاء حبها لذاتها. وقد أدَّى هذا التوتر الداخلي إلى الفصل بين العنصرَين الأساسيين في الحب؛ العنصر الجسمي والعنصر العاطفي الروحي؛ فهي تعتقد أن الاستسلام للعواطف ضعف، وأن الجانب الجسمي بمثابة انحطاط وإهانة لكرامتها.

فالطريق السوي الذي يجب أن يسير فيه الحب هو تحقيق التكامل بين نزعات الإنسان من حيث هو كلٌّ مُتكامل من جسم ونفس. وكما أن الحب العاطفي البحت حبٌّ ناقص، كذلك الحب المقصور على مجرد الرغبة الجسمية ناقصٌ بدَوره.

ومعظم المشاكل التي تعترض سعادة الإنسان في حياته العاطفية وحياته الزوجية ترجع إلى هذا الفصل بين عنصرَي الحب، وبقدر تحقيق الانسجام بينهما تكون سعادة الزوجين؛ وبالتالي سعادة الأطفال الذين هم بحقٍّ أجمل ثمرة للحب الصحيح السعيد.

(٢) الزواج والسعادة

سنتناول في الصفحات التالية مشكلات الزواج، مع الإشارة إلى وسائل التكيُّف بين الزوجَين، ومختلف العوامل التي تُهدِّد هذا التكيُّف.

إن موضوع الزواج مُتعدِّد النواحي، تلتقي فيه مجموعةٌ كبيرة من العوامل البيولوجية والنفسية والاجتماعية والقضائية والروحية. وهو مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بموضوع الأسرة؛ إذ الأسرة في مجتمعنا المُتحضِّر تقوم على زواج الرجل والمرأة طبقًا لتقاليد ونُظُم وقوانين يُعينها المجتمع، والأسرة تُعتبَر بحقٍّ النواةَ الاجتماعية الأصلية. وعلى الرغم من أن كثيرًا من وظائف الأسرة قد ضعف أو تلاشى مع تطوُّر المدنية، فلا تزال هناك وظائف أساسية تؤدِّيها الأسرة إذا أراد المجتمع أن يحتفظ بكيانه، وأن يضمن بقاء الثقافة والمدنية والحضارة التي حقَّقتها منذ فجر الإنسانية حتى يومنا هذا. ويمكن تلخيص وظائف الأسرة في النقط الآتية:

أولًا: إعطاء العلاقة الجنسية بين الزوج والزوجة قيمتَها القصوى من الوجهة الوجدانية والروحية؛ إذ إن سعادة الإنسان تقتضي بأن يكون الرباط الذي يربط بين الزوجَين رباطًا جسميًّا وروحيًّا في آنٍ واحد.

ثانيًا: تنشئة الأطفال في جوٍّ من المحبة المتَّزِنة والتفاهم الودِّي.

ثالثًا: إعداد الفرد لكي يصبح عضوًا نافعًا في المجتمع يُدرِك بوضوحٍ ما عليه من واجبات وما له من حقوق، لا ينشأ فقط على الأخذ والمطالبة، بل يُحسِن العطاء والبذل.

رابعًا: إعداد الطفل بطريقةٍ تدريجية ولا شعورية لكي يُحقِّق في المستقبل زواجًا سعيدًا ناجحًا.

وهذه الوظائف، كما هو واضح، مرتبطةٌ بعضها ببعض؛ فالوظيفة الأولى خاصة بالزوجَين، وبطبيعة العلاقة التي يجب أن تقوم بينهما، وهي الشرط الأساسي لتحقيق الوظائف الثلاث الأخرى الخاصة بالأطفال؛ فالأسرة لا تكمل إلا بهم، كما أن شخصيةَ كلٍّ من الزوج والزوجة لا تزدهر وتكتمل إلا بهم؛ غير أن عدم إنجاب الأطفال إذا كان غير متعمَّد لا يعني حتمًا شقاء الزوجين، وضرورة قطع أواصر الزوجية بينهما.

أما إذا كان عدم إنجاب الأطفال أمرًا متعمدًا مقصودًا مع عدم وجود أي مبرِّر طبي لذلك، فعندئذ نكون بصددِ حالةٍ شاذَّة مَبعثُها الأنانية الزائدة، أو أعراضٌ مرَضيةٌ نفسية تتطلَّب العلاج. ودراسة الزواج من الوجهة السيكولوجية تقتضي البحث في الأمور الآتية:

ما هو المقصود بالسعادة الزوجية؟ هل يمكن دراسة هذا الموضوع دراسةً علمية؟ وما قيمة البحوث التي عملت في هذا الميدان؟ ما هي العوامل التي تضمن السعادة الزوجية؛ وبالتالي أسباب الشقاء بين الزوجَين؟ وأخيرًا، هل في إمكان عالم النفس أن يُساعد الزوجَين

على إزالة أسباب الشقاء وإعادة الوفاق والانسجام بينهما؟ وسنحاول الإجابة على هذه الأسئلة، مع الإشارة بصفةٍ خاصة إلى الدور الهام الذي تؤدِّيه الزوجة في تدعيم الأسرة وتحقيق سعادتها.

لا شك في أن معنى السعادة ومعنى النجاح من المعاني النسبية؛ فالسعادة حالةٌ نفسيةٌ ذاتية تختلف باختلاف الأشخاص، وباختلاف حاجات كل شخص وميوله وأغراضه ومُثُله العليا، بل تختلف باختلاف العوامل اللاشعورية التي تُعين الميول والاتجاهات، والتي قد تحُول دون تحقيق السعادة على الرغم من توافُر الأسباب الخارجية الظاهرة التي يُعتقَد عادةً أنها كافية لتحقيق السعادة والرضا. ومعنى النجاح مختلف عن معنى السعادة؛ فهو مرتبط أكثر من السعادة بالعوامل الثقافية والاجتماعية. ومن الخطأ أن يُتَّخذ النجاح كما يبدو للمجتمع معيارًا لسعادة الأفراد؛ فقد يكون النجاح الاجتماعي ستارًا يُخفي وراءه التعاسة التي يُعانيها الشخص في حياته الداخلية الخاصة.

ثم إن السعادة ليست حالةً مُستقرة يمكن الاحتفاظ بها في ركن من أركان النفس بعيدًا عن مُعترَك الحيلة، وعن الجهود التي يتطلَّبها الكفاح اليومي؛ بل ما تمتاز به السعادة من جاذبية وفتنة وإغراء يرجع إلى أنها هدفٌ يُثير الاهتمام، ويدفع إلى العمل والنشاط والإنتاج وبذل الخير والمحبة للآخرين؛ إذ إن اكتمال السعادة لا يتم إلا بنموِّ جميع إمكانيات المرء وازدهارها في مجال الأسرة والمجتمع.

وكما أن السعادة ليست حالةً مستقرة، فهي ليست من جهةٍ أخرى بذل النشاط بإسراف ومواصلة العمل إلى حد الإنهاك لجمع المال واكتساب الجاه والمجد؛ فالطموح الأعمى يُلهي صاحبه عن نفسه، ويحُول دونه ودون الغذاء العاطفي الذي يُحقِّق الاتزان النفسي والسعادة الحقَّة.

فالسعادة إذن، وإن كانت حالةً ذاتيةً ونسبية، مرتبطةٌ بالاتزان النفسي. وبما أن للاتزان النفسي مظاهر خارجية يمكن مشاهدتها في سلوك الشخص، فيترتَّب على ذلك أنه من الممكن تعيين أهم شروط السعادة بالوقوف على أسباب الاتزان النفسي وعوامله. ومعنى الاتزان قريب من معنى الاعتدال، وهو يُوحي دائمًا بوجود طرفَين أو جانبَين مُتقابلين يسعى المرء في التوفيق بينهما، ويتَّخذ هذان الجانبان أشكالًا عدَّة تبدو مختلفة في الظاهر وإن كانت متشابهة ومتحدة في جوهرها. نذكُر منها الحقوق والواجبات، الأخذ والعطاء، حب الذات وحب الغير، الإمكانيات والمطالب، الوسائل والأهداف، الحاجة إلى الأمان والاطمئنان والميل إلى المُجازفة والاستزادة … إلخ. والتوفيق بين هذه الأزواج من

الأطراف لا يتم أبدًا بصورةٍ ساكنة مُستقرةٍ نهائية، بل يتطلَّب مُواصلة العمل وبذل النشاط لإعادة تحقيقه كلما تعرَّض الاتزان للاختلال بتغير الأحوال؛ فأحوال المعيشة اليومية مُتغيِّرة حتمًا، والحياة في صميمها مُقاوَمة وكفاح.

ويمكن توزيع نشاط الإنسان في ميادين ثلاثة: المهنة، الأسرة، المجتمع الخارجي. أو بعبارةٍ أخرى: العمل، الحب، وشغل أوقات الفراغ. والنجاح في هذه الميادين الثلاثة كفيل بتحقيق الاتزان والسعادة، بشرط أن يبذل الشخص المجهود المُلائم المؤدِّي إلى التكيُّف. وبالنجاح في هذه الميادين يُرضي الإنسانُ ثلاث حاجات جوهرية: الحاجة إلى الأمان والاطمئنان، الحاجة إلى العطف والحب، الحاجة إلى تقدير الآخرين والسمعة الطيبة. ويبدو أن الأسرة نظرًا لكونها نواة الحياة الاجتماعية وصورةً مصغَّرة لها، تُتيح للشخص فرصة إرضاء هذه الحاجات الأساسية، وخاصةً الحاجة إلى العطف والحب؛ فسعادة الأسرة تقتضي من جميع أفرادها المُساهمة في أعمال المنزل والاهتمام بشئونه المادية، ثم خلق جو من التفاهم والمحبة والانسجام، وأخيرًا تنظيم أوقات الفراغ وإتاحة أسباب الترفيه عن النفس؛ ولذلك يُعَد تحقيق السعادة في حياة الأسرة من أشق الأهداف، وخاصةً تحقيق التكيُّف بين الزوج والزوجة وبينهما والأطفال.

فالتكيُّف الذي يجب أن يُحقِّقه الإنسان في مجال عمله بينه وبين رؤسائه أو أقرانه يتطلَّب أحيانًا كثيرًا من التضحية والجهد، غير أنه أخفُّ وطأة من التكيُّف المطلوب من الزوجَين؛ إذ إن الصلة التي تربط الإنسان بعمله تكون متقطعة وخارجية إلى حدٍّ ما، في حين أن الصلة التي تربط بين الزوجَين مستمرةٌ داخلية يجب أن تصل إلى حد الاتحاد والتوحيد، وهذا الاتحاد يشمل جميع النواحي الجسمية والنفسية؛ فعَلى الزوجين التوفيق بين أمزجة وعادات وأخلاق ومعتقدات وميول خاصة بكل واحد منهما، وهذا أمرٌ شاقٌّ عسير لا يمكن أن يتم في وقتٍ وجيز، بل يتطلَّب مُواصلة المجهود سنواتٍ طوالًا.

وعندما نُحلِّل معنى السعادة[1] نجد أن الطابع الذي يَغلب عليها هو أنها حالةٌ نسبيةٌ غير ثابتة، تتوقَّف خاصةً على عوامل ذاتية، غالبًا ما تكون مجهولة من الشخص.

---

[1] انظر «مشكلة السعادة» في كتاب «شفاء النفس» للمؤلف، الفصل الأول، الطبعة الثانية ١٩٥٣، دار المعارف بمصر.

وكما أن هذه العوامل الذاتية مرتبطة بالظروف الخارجية، وتتفاعل معها، قام بعض علماء النفس بدراسة السعادة الزوجية دراسةً موضوعيةً إحصائية بطرح بعض الأسئلة على مجموعاتٍ كبيرة من المُتزوجين. وقد وُجد أن نِسب حالات الزواج السعيد تختلف باختلاف الطبقات؛ فهي أعلى بوجهٍ عام في الأوساط المُتعلمة وخاصةً الأوساط الجامعية، كما أنه لُوحِظ أن نسبة حالات السعادة في النساء المُتزوجات تقلُّ عادةً عن نِسبتها في الرجال المُتزوجين. وهذه النتيجة يمكن تفسيرها إلى حدٍّ كبير؛ فقد سبق أن تحدَّثنا في الفصل الثاني عن تطلُّع المرأة إلى المُطلَق والكمال، وبالتالي عن الصعوبات الجمَّة التي تعترض سبيلها إلى السعادة. ونعلَم من جهةٍ أخرى أن عقل المرأة يميل إلى التأليف وإلى النظرة الكلية أكثر من ميله إلى التحليل والتفكير المنطقي الاستدلالي؛ فهي تُحس أكثر من الرجل أن الزواج فعلٌ اجتماعي يقتضي تكامُل النواحي الجسمية والعاطفية والروحية داخل مُحيط الأسرة؛ فهي لا تفهم أن يُفصَل بين هذه النواحي، وإن قبِلت الفصل مُرغَمةً طائعة فسيكون هذا القبول على حساب سعادتها الداخلية وتوازُنها النفسي. أما الرجل فهو أميل إلى التقسيم والتشتت، يُوزع نشاطه؛ وبالتالي يُوزع عوامل إرضائه بين الأسرة وبين عمله الخارجي ومشاغل مهنته، وفي إمكانه أكثر من المرأة أن يلجأ إلى عمليات التعويض.

وهناك نتيجةٌ أخرى أسفرت عنها البحوث التي أشرنا إليها، وهي أن حالات السعادة الزوجية تزداد مع طول مدة الزواج؛ فإذا تناولت الدراسة حالات الزواج التي تتراوح مدتها بين سنة وست عشرة سنة، فتكون نسبة حالات السعادة ٧٥٪، في حين أن هذه النسبة تهبط إلى ٦٨٪ في حالات الزواج التي لا تزيد المدة فيها عن ست سنوات.

ومن اليسير تعليل هذه النتيجة؛ فالسنوات الأولى في الحياة الزوجية تتطلَّب مجهوداتٍ شاقَّةً لتحقيق التكيُّف بين الزوجَين الجديدين؛ وذلك لعدة أسباب:

أولًا: الأسباب التي ترجع إلى المرحلة السابقة للزواج والمُمهِّدة له. وتختلف هذه المرحلة في الشرق باختلاف الأوساط وبالنسبة إلى كلٍّ من الرجل والمرأة؛ فقد يُفرَض الزواج على البنت فرضًا دون أخذ رأيها في اختيار الزواج.

وفي هذه الحالة كثيرًا ما تشعر البنت بأنها ضحية أو فريسة، فتدخل الحياة الزوجية وهي حذِرةٌ مُتحفظة تلجأ في بادئ الأمر إلى أساليب الدفاع والمقاومة، أو تحتمي في موقف من الاستسلام والخضوع السلبي بدون تعاوُن ولا مشاركة. كما أن الرجل في هذه الحالة يدخل الحياة الزوجية وعقليته عقلية السيد المُسيطِر، أو المالك الأناني الذي أضاف إلى

مُتَعه متعةً جديدة ووسيلةً جديدة لإرضاء سيطرته وسلطته، أو وسيلةً جديدة للتعويض عمَّا يُعانيه من نقص وتقصير في مهنته أو في مجال نشاطه الاجتماعي. ولا شك في أن مثل هذا الجو لا يصلح مُطلَقًا لتهيئة الزواج السعيد؛ إذ إن الزواج فعلٌ اجتماعي مُتكامل النواحي يقتضي التبادل، الأخذ والعطاء، والتأثير المُتبادَل الحكيم المؤدِّي إلى الانسجام.

أما في حالة إمكان التعارف بين الشاب والشابَّة، سواء قبل الخطوبة أو في أثنائها، فإنه يصبح من الأيسر التمهيد لتحقيق الانسجام بينهما بعد الزواج؛ غير أنه في هذه الحالة أيضًا تنشأ بعض العقبات التي سيكون من شأنها تعكير الجو فيما بعد، وأول هذه العقبات التصنُّع الذي يلجأ إليه كلٌّ من الخطيبَين للظهور في أجمل صورة خلقية، لا لتضليل الآخر دائمًا، بل للاحتفاظ به وتنمية الجاذبية، خاصةً إذا كان دافع الزواج المصلحة المادية أو الاجتماعية أكثر منه دافع الحب والتقدير المُتبادَل.

أما العقبة الثانية فقد تنشأ من طبيعة الحب نفسه؛ فقد يبحث المُحِب لا عن قرين أو رفيق، بل عن بديل لشخصٍ آخر، وكثيرًا ما يكون الأبَ أو الأم، وذلك في حالة تعلُّق البنت بأبيها تعلقًا جنسيًّا لا شعوريًّا، أو تعلُّق الشاب بأمه. أو قد يتخذ الحب شكلًا شعريًّا خياليًّا مُسرِفًا في الشعر والخيال، وهو ما يعرف بالحب الرومنتيكي الخالص. نعم إن عنصر الشعر والخيال من أهم مُقوِّمات الحب؛ لأن العاطفة من أهم دعائم الشخصية المُتكاملة المتَّزِنة، ولكن كما أن الشخصية تفقد توازُنها إذا طغت العاطفة وطغى الخيال على العقل والفكر، فكذلك يفقد الحب قدرته على الخلق والابتكار، ويصبح عقبة بدلًا من أن يظل قوةً فعَّالة، إذا طغى الخيال على الواقع، وإذا تاقَ العاشقان إلى مثلٍ أعلى أسمى من أن يُحقِّقه الإنسان في مجتمعٍ تزداد مشاكله يومًا بعد يوم. فالحب الشعري ينمو في الغفلة والأحلام، وكثيرًا ما يكون مآله الخيبة واليأس. أما الحب الذي يريد أن يكون رباطًا وثيقًا بين اثنين، جسمًا وقلبًا وروحًا، وأن يكون درعًا قوية لوقاية الزوجَين من أحداث الدهر، فيجب عليه أن يكون يقظًا من حين إلى آخر، وأن يقوم على دعامة العاطفة من جهة، ودعامة العقل المُستنير من جهةٍ أخرى؛ أي على التوفيق بين الخيال والواقع.

وأخيرًا سواء أُتيحَت فرصة التعارف أو لا، فإن المرحلة السابقة لعقد الزواج كثيرًا ما تكون منشأ متاعب للخطيبَين؛ نظرًا لما يدور حول مشروع الزواج من مناقشات بين الأهل فيما يختصُّ بالمسائل المالية والمادية الأخرى من سكن وإقامة وكيفية فرش المنزل، إلى آخره من هذه الأمور التي لا بد من تنظيمها. هذا فضلًا عن المتاعب التي قد تنشأ من غَيرة الإخوة والأخوات، بحيث يصل الخطيبان إلى عتبة الزواج وهما في حالة توتُّر عصبي

أو إنهاك؛ ممَّا يُهدِّد تحقيق السعادة الزوجية منذ مَطلعها، خاصةً إذا أضفنا متاعب شهر العسل، حيث يحتدم الصراع بين الخيال والواقع.

وقبل أن نعرض لمشاكل التكيُّف في بدء الزواج، نُشير إلى نتيجةٍ أخرى من نتائج الأبحاث التي تناولت نسبة حالات السعادة والشقاء في الزواج؛ ففي أحد البحوث كانت نسبة السعادة الزوجية ٤٥٪ لدى الزوجات و٥١٪ لدى الأزواج، فطُرح على أفراد المجموعة السؤال الآتي: «إذا كان في إمكانك أن تضغط على زرٍّ فتصبح بأعجوبةٍ أنك لم تتزوَّج قط، فهل تضغط على هذا الزر؟» فكانت النتيجة ٩٤٪ لا و٦٪ نعم.

ومَغزى هذه التجربة أن الشخص يعجز عن تقدير سعادته أو شقائه حق التقدير، وأنه ما دام يمتلك الشيء فهو يغفل عن بعض مزاياه، ولا تتَّضح هذه المزايا إلا إذا هُدِّد هذا الشيء بالضياع والفناء. ثم إن السعادة ليست حالةً مستقرةً ثابتة، وإنما تتحقق في السعي وراءها أكثر من امتلاكها، أو في الاعتقاد بأننا حصلنا عليها.

الواقع أن حياة الإنسان لا تسير على وتيرةٍ واحدة من السعادة أو الشقاء، بل هي مزيج من الاثنين، ومع مر السنوات يتعوَّد المرء الحياة في جوٍّ يلتقي فيه النقيضان من فرح وحزن، بحيث يصبح الألم أحيانًا عنصرًا من عناصر تحقيق السعادة؛ فيصبح المثل الأعلى أكثر اعتدالًا من ذي قبل، وشروط السعادة والهناء، أو على الأقل شروط الرضا، أيسر تحقيقًا.

(٣) عند مستهل الحياة الزوجية

قد يُؤلِم القارئَ أن يعرف أن المشكلات التي تعترض الزوجَين الحديثَين تبدأ منذ اللحظات الأولى، في هذه الفترة التي تُعرَف بشهر العسل، فلنتتبَّع الزوجَين منذ حفلة الزفاف لتحليل نفسيتهما، ووصف موقف كل منهما من الآخر. تم عقد الزواج بما يُحيط به من ضمانات وتأييداتٍ اجتماعية. اشترك الأهل والأصدقاء في الفرح، وقدَّموا التهاني الودية والتمنيات الطيبة بالسعادة والرفاهية، وأخذوا ينصرفون الواحد بعد الآخر. انتهى الحفل مُعلِنًا بانتهاء عهد وبدء عهد جديد. وطلبًا للراحة والاستجمام بعد متاعب الاستعداد للزواج، يقوم العروسان عادةً برحلةٍ قصيرة لتمضية شهر العسل في بقعةٍ هادئة. ولنفرض أن كلًّا من الزوجَين مستعدٌّ لبذل أقصى مجهوده من لطف وحب وتسامح لكي يكون هذا الشهر جديرًا بتسميته، أن يكون فترة هناء صافٍ وسعادة حلوة. غير أن الأمر ليس في هذه الدرجة من اليسر والسهولة كما يتصوَّره الشعراء وكُتاب القصص الغرامية؛ فهناك

مشكلاتٌ عدَّة تعترض الزوجَين في بدء حياتهما الجديدة؛ مشكلاتٌ خاصة بتكيُّف كل واحد للآخر، والتوافق معه من الجهة الجنسية والمزاجية والأخلاقية.

هل شهر العسل هو امتداد لفترة الأحلام التي سبقت الزواج، أم مرحلة استعداد للحياة الجديدة وما تتطلَّبه من واجباتٍ واقعية؟ أعتقد أن كلما كان الانتقال من عالم الأحلام إلى عالم الواقع سريعًا كان التكيُّف المطلوب أسهل تحقيقًا. ومن أهم عوامل نجاح هذا التكيُّف أو فشله، طبيعة الدور الذي يؤدِّيه كلٌّ من الزوجَين نحو الآخر. الواقع أن الشخص يدخل الحياة الزوجية في بادئ الأمر وعلى وجهه قناعٌ مُستعار، ثم يسقط هذا القناع تحت ضغط الظروف، وضرورة مواجهة مواقف جديدة، وخلق صور جديدة من العلاقات بين شخصَين، ولا يلبث الشخص طويلًا حتى يستردَّ طبعه الأصلي، ويخضع للاتجاهات والعادات التي اكتسبها من قبل، وكثيرًا ما يحدث تعارُض بين الدور الجديد الذي يجب على كلٍّ من الزوجَين أن يتعلَّمه لكي يؤدِّيه على أحسن وجه، وبين الأدوار التي اعتاد أن يقوم بها قبل الزواج، وتبعًا لدرجة النضج العاطفي والاجتماعي التي وصل إليها الشخص تكون درجة السهولة في تعلُّم الدور الجديد.

يعتقد بعض الشُّبان أن العامل الأساسي للسعادة الزوجية التشابهُ التام بين الزوجَين، من حيث الأذواق والأفكار والاتجاهات العاطفية، فكل واحد من العروسَين يريد أن يجد في الآخر صورةً صادقة لنفسه، وأن الاتحاد بين نفسَين يجب أن يقوم على تجاوبٍ تام بينهما. إن طلب مثل هذا التجاوب التام ينطوي على خداعٍ خطير، ولا بد أن يؤدي إلى الخيبة؛ فالاتحاد في الغرض لا يعني بالضرورة الاتحاد التام في الآراء والعواطف والاستجابات الحسية والانفعالية. نعم إن المثل الأعلى للزوجَين أن يصبحا شخصًا واحدًا، وأن يتَّحدا اتحادًا كليًّا إذا أمكن؛ غير أن الوحدة التي تربط بين الزوجية يجب أن تكون وحدةً حيةً منظَّمة، تسمح للعناصر التي تتكوَّن منها بأن تنمو وتزدهر في جوٍّ من التبادل الحر والتعاون المُثمِر.

إن الإلحاح الذي يُبديه أحد الزوجَين في أن يكون الآخر شبيهًا به كل المشابهة لا يرجع إلى قوة الحب وكماله، بل إلى ضعفه ونقصه؛ فهو دليل على عدم نضج الحب، كأن الشخص عاجز عن أن يحب شخصًا آخر سوى نفسه، والإسراف في حب الشخص لنفسه صورةٌ من صور الحب كما يشعر به الطفل. ومثل هذا الموقف يؤدي حتمًا إلى عرقلة التكيُّف الجنسي في بدء الحياة الزوجية؛ إذ يكون الدور الذي يؤديه الزوج أو الزوجة دور الطفل المدلَّل.

ثم هناك عاملٌ آخر، غير الحب الذاتي المُسرِف، يدفع الشخص إلى البحث عن صورةٍ صادقة لنفسه، وهذا العامل هو الخوف. وقد برع أصحاب التحليل النفسي في وصف أثر الخوف في العلاقات الزوجية؛ فمن الوسائل التي يلجأ إليها المرء لمقاومة الخوف التشبُّهُ بالشيء المُخيف؛ ألا ترى الطفل الذي يخاف من الغول أو من الكلب يتقمَّص شخصية الغول أو الكلب، ويسلك سلوكهما مُحدِثًا في نفسه في آنٍ واحد الخوف والأمان. ولننظر كيف أن هذا الموقف المُزدوج من خوف وعدوان يلعب دوره في العلاقات الأولى بين الزوجَين، وكيف أن التكيُّف الجنسي والعاطفي يكون عسيرًا لدى الزوج الذي يبحث في الآخر عن صورةٍ صادقة لنفسه.

لا شك في أن الحب عند بدء العلاقات الزوجية يتَّخذ شكلًا مُزدوجًا مُتناقضًا، ينطوي على العدوان والهجوم من جهة، وعلى الدفاع والاستسلام بدرجاتٍ مُتفاوتة من الرضا من جهةٍ أخرى. ويرجع هذا الازدواج المُتناقض إلى الاختلاف القائم بين وظيفة كل من الزوجَين؛ فالحب الذي سيؤدِّي في الحالات السوية إلى أنبل صورة من الاتحاد بين نفسَين، يبدأ في شكل صراع ينطوي حتمًا على عنصر العدوان.

ومن المعلوم أن العدوان كثيرًا ما يصحب الخوف لدفع مصدر الخوف أو تجنُّبه. وكذلك كثيرًا ما يشعر المُعتدي بالخوف؛ لأنه يخشى من المُعتدى عليه أن يردَّ على هذا العدوان بعدوانٍ آخر. وعندما يبحث أحد الزوجَين عن شخصٍ آخر شبيه به كل المشابهة، أو يعتقد أنه كذلك، فإنه لا يسلك هذا السلوك إلا لتهدئة خوفه من عدوان الآخر.

إنه من السهل أن نجد تأييدًا لهذا الوصف في سلوك الحيوانات. طبعًا إننا لا نذهب إلى القول بأن سلوك الإنسان شبيهٌ تمام المشابهة بسلوك الحيوانات؛ فلا يمكننا أن نجهل تطوُّر الحب الإنساني في أشكاله ومظاهره تحت تأثير العوامل الروحية والعقلية والعاطفية وأثر الحضارة والتربية والأخلاق؛ غير أنه من الخطأ أيضًا أن نتجاهل الجزء المُشترك بيننا وبين الحيوانات؛ فإن جهلنا للجانب البهيمي في الإنسان إما أن يُعرِّضنا لانفجار هذا الجانب دون الاستعداد لمواجهته بحزم وحكمة، أو يجعلنا نحرم أنفسنا ممَّا قد تمدُّه بنا هذه القُوى الحيوانية من حيوية وطاقة نستخدمها في تحقيق الأغراض الروحية والاجتماعية الراقية.

فمن الواجب إذن على الزوجَين الحديثَين أن ينظر كل واحد منهما إلى الآخر على أنه يُواجه كائنًا حيًّا وشخصًا واقعيًّا، لا مخلوقًا خياليًّا يتصوَّره حسب رغباته أو مخاوفه. فلا ينظر إليه من وجهةٍ جنسيةٍ بحتة، كما لا ينظر إليه من وجهةٍ مثالية وروحيةٍ بحتة

فيُجرِّده من حساسيته ومن ميوله الجنسية. وليست هذه النظرة الروحية البحتة دليلًا على الاحترام والتقدير، بل مَبعثها هو الخوف، بل أحيانًا الكبت المَرَضي.

ذكرنا فيما سبق أحد العوامل التي تجعل تحقيق التكيُّف في بدء الحياة الزوجية أمرًا عسيرًا، وأرجعنا هذا العامل إلى عدم نضج الحب ووقوفه عند صورة من صوره الطفلية، وسنتناول في الفقرة التالية عوامل أخرى تتعلق بمختلف الأدوار التي قد يقوم بها كلٌّ من الزوجَين، وبعض هذه الأدوار التي يرجع عهدها إلى سِنِي الطفولة والمراهقة تتعارض مع طبيعة الحياة الزوجية وواجباتها الجوهرية.

(٤) آثار الماضي

يُركِّز علم النفس الحديث اهتمامه في دراسة السلوك، ودراسة الاستجابات التي تصدُر عن الشخص في مختلف المواقف الاجتماعية. وهذه الاستجابات تتعيَّن أشكالها وأساليبها تبعًا لما اكتسبه المرء من عادات، وما تعلَّمه من اتجاهات، وتبعًا لنظرته إلى الأشخاص الآخرين الذين يتعامل معهم؛ فاختلاف المواقف التي تُواجهه يستلزم منه أن يُغيِّر أحيانًا من أسلوبه في الاستجابة والمعاملة، ويعتبر مدى قدرته على التغير مقياسًا للتكيُّف الناجح؛ غير أن هذه القدرة محدودة، تحدُّها الأنماط السلوكية التي اكتسبها الشخص في سِنِي الطفولة والمُراهقة.

وعندما يتزوَّج الشخص فإنه يحمل معه هذه الأنماط السلوكية القديمة، وكثيرًا ما يكون غافلًا عن وجودها، فيعتقد أن سلوكه يصدر عن تفكير وروية، في حين أن هناك عوامل لا شعورية تؤثِّر تأثيرًا كبيرًا في تعيين السلوك وتوجيهه، وما يكون التفكير إلا وسيلة للتبرير أو لإخفاء الدافع الحقيقي.

والإنسان طولَ حياته يؤدِّي أدوارًا مختلفة، وتظهر هذه الأدوار وتُكتسَب منذ الطفولة؛ فأحيانًا يلعب المرء دور المُسيطِر المُتعسِّف العنيد الذي يريد فرض رأيه وتنفيذه فورًا دون مناقشة ولا مُماطلة، وأحيانًا يقوم بدور الشخص الخاضع المُستسلم الخائف الذي يخشى بذل المجهود، ولا يبغي إلا راحة البال والاطمئنان، وأحيانًا أخرى يؤدِّي دور المُتملِّق الذي يلجأ إلى الخداع والمُواربة للوصول إلى غايته. وهذه الأدوار وغيرها تتفاعل بعضها مع بعض بحيث يصعب تمييزها بوضوح، وتكون في نهاية الأمر اتجاهاتٍ لا شعورية تتبلور فيما يُسمَّى بأسلوب الحياة.

والمظاهر السلوكية المختلفة التي تحدث بين الزوجَين في حياتهما اليومية ليست في معظم الأحيان سوى تعبيراتٍ رمزية للأساليب الاستجابية التي تكوَّنت في الطفولة والمُراهقة، كما أن المواقف الجديدة التي يقفها كل زوج من الآخر تكاد تكون صورةً صادقة للمواقف التي اشترك فيها الشخص في أسرته عندما كان طفلًا؛ مواقفه مع والدَيه ومع إخوته وأخواته. وتوضيحًا لذلك نذكُر الأمثلة الآتية:

فقد تقوم الزوجة في نظر زوجها بالأدوار الآتية: دور الأم التي يعتمد عليها الطفل كل الاعتماد، وعندئذٍ يكون سلوك الزوج نحو زوجته شبيهًا بسلوك الطفل الذي يأوي إلى صدر أمه طالبًا حمايتها، ومُتعطشًا إلى عطفها وحنانها؛ ثم قد تنقلب الزوجة في نظر الزوج إلى هذه الأخت التي كان يكرهها الزوج عندما كان طفلًا، أو تقوم بدور الأخ الذي كان يحبه؛ ولكن ما يحدث غالبًا هو سيطرة صورة الأم في لاشعور الزوج، فيقوم التعارض بين الدور القديم الذي كان يؤدِّيه عندما كان طفلًا، والدور الجديد الذي يجب عليه أن يتعلَّمه من حيث هو زوجٌ يتعامل لا مع أم له، بل مع زوجةٍ تنتظر منه أن يكون رجلًا بالغًا قويًّا واثقًا من نفسه، لا طفلًا مدلَّلًا خائفًا.

وما يُقال عن الزوج يُقال أيضًا عن الزوجة؛ فقد تنظر إلى زوجها نظرتها القديمة إلى الأب الذي كانت تخشاه أو تحترمه احترامًا أعمى، أو الذي كان يُرضي كل نزواتها، ويغضُّ النظر عن أخطائها ونقائصها؛ فهي تبحث في زوجها عن صورة الأب، وتستجيب له بالأسلوب نفسه الذي كانت تصطنعه عندما كانت طفلة.

غير أنه يجب أن نقول إن استعادة هذه الأساليب القديمة في الحياة الزوجية تحدث بدرجاتٍ متفاوتة، تبعًا لدرجة النضج الانفعالي الذي يكون الشخص قد وصل إليها؛ فإن تحقيق النضج الانفعالي ونمو الحياة العاطفية نموًّا سليمًا دون كبتٍ مرَضي، ودون تثبيت في مراحل النمو الأولى، يُحرِّرالعقل والفكر من القيود اللاشعورية، ويُخفِّف وطأة الأساليب الدفاعية والاستجابات العدوانية التي تُهدِّد العلاقات الزوجية بالتوتر والفشل.

ومن الاتجاهات المُكتسَبة في الطفولة، والتي تؤثِّر فيما بعدُ تأثيرًا بليغًا في موقف كل زوج من الآخر، الاتجاهُ الخاص بوظيفة الجنس وقيمته. إن القاعدة الأساسية في التربية الجنسية هي أن يُربَّى الصبي بحيث يتَّجه نحو الرجولة الجسمية والخلقية دون احتقار الجنس الآخر، ودون أن يُلقَّن أن جنسه هو الأفضل، بل أن الجنسَين مكمِّلان الواحد للآخر.

وكذلك يجب أن تُربَّى البنت، بحيث تتَّجه نحو الأنوثة الجسمية والخلقية دون الخوف من الجنس الآخر، ودون تلقينها أو الإيحاء إليها بأنها ناقصة، بل أن كل جنس لا يكمل إلا بالآخر. ولنتخذ حالة البنت التي تُوجَّه في تنشئتها الجنسية توجيهًا شاذًّا لتحليل هذه الحالة، ومعرفة العواقب السيئة التي ستُهدِّد فيما بعدُ السعادة الزوجية.

إن المقارنة التي تقوم بها البنت بينها وبين أخيها قد تُوحِي إليها أنها دونه من حيث التركيب الجسمي، وقد تُثبِت معاملة الوالدَين هذا الاعتقاد في ذهن البنت، ويصحب هذا الاعتقادَ شعورٌ بالألم والخيبة لا يلبث أن يُكبت فيما بعد. ثم تأتي مرحلة الطفولة المُتأخرة التي تسبق مرحلة المُراهقة، وفي هذه المرحلة يتَّجه اهتمام البنت نحو العالم الخارجي والنشاط الاجتماعي والتحصيل المدرسي. وعند بدء المُراهقة تأخذ العواطف الجنسية الغامضة تثور من جديد، فتشعر البنت بالجاذبية الطبيعية نحو أقرانها من الجنس الآخر. وقد يحدث في هذه المرحلة أن تصطدم العواطف الناشئة بالتقاليد الاجتماعية السائدة، ويعجز الوالدان أو المُربُّون عن فهم دلالة هذا التطور الجديد في النمو العاطفي؛ فبدلًا من تهذيبه وتوجيهه بلينٍ وحكمة يُحدِث سلوك الوالدَين التعسفي شعورًا بالإثم والخطيئة في نفسية البنت، فترتدُّ العواطف إلى أعماق النفس، ثم تبحث عن وسيلة للإرضاء لا تحرمها التقاليد الاجتماعية، فتتعلَّق البنت بزميلة لها أكبر منها سنًّا، أو بمُدرِّستها التي قد تكون مدفوعة بشيء من الإسراف إلى بذل الحب والحنان بصورةٍ تكاد تكون شاذة، وعندئذٍ يتكوَّن في البنت اتجاهٌ جديد هو التعلق الغرامي بشخصٍ من نفس الجنس، والنظر إلى الجنس الآخر نظرة خوف أو بغض أو اشمئزاز. وكثيرًا ما يحدث أن تستنكر الفتاة الناشئة أنوثتها، أو تخجل منها، ويحدث كل ذلك في هامش الشعور، ثم يتغلغل في أعماق النفس اللاشعورية، ويتكتَّل مع الاتجاهات الشاذة التي نشأت في الطفولة.

ثم تجتاز الفتاة مرحلة المُراهقة بدرجاتٍ متفاوتة من النجاح أو الفشل في تحقيق التكيُّف العاطفي، وتُقبِل على الزواج دون مُقاومة صريحة، ولكن بشيء من الفتور، جاهلةً الدوافع اللاشعورية الشاذة التي قويت في أثناء المراهقة، وعاجزةً عن أن تُطهِّر نفسها من هذه الشوائب، ومن موقفها السلبي نحو الجنس الآخر؛ نتيجة لاستنكار أنوثتها. وعندما ستُواجَه الزوجة بواجباتها الجديدة ستجد صعوبةً كبيرة في تحقيق التكيُّف المطلوب منها؛ ممَّا يؤدِّي إلى تعكير صفو الحياة الزوجية. وهنا نلمس ضرورة تثقيف الشباب من الجنسَين بالثقافة السيكولوجية التي تُنير لهم خبايا النفس الإنسانية، وتُرشِدهم إلى وسائل التغلب على الاتجاهات المُنحرفة، وتحقيق التوافق في بدء الحياة الزوجية.

(٥) الغيرة

أشرنا في الفقرات السابقة إلى بعض العوامل التي تُعكر صفو الحياة الزوجية، وتُهدِّد السعادة العائلية، كالتفاوت الكبير بين الزوجَين من حيث المستوى الثقافي أو الاقتصادي، والاختلافات البيِّنة في الآراء والمعتقدات والعادات، ثم عدم التكيُّف العاطفي والجنسي، ومن أسباب عدم التكيُّف لدى المرأة استنكار أنوثتها أو الخوف اللاشعوري من الجنس الآخر، والإحساس الخفي بأن العلاقة الجنسية تنطوي على الاعتداء والأذى.

والتحليل النفسي، كما نعلَم، يُوضِّح لنا أسباب هذه المواقف الشاذَّة مُرجِعًا إياها إلى بعض خبرات الطفولة، وعدم تصفية بعض العُقَد النفسية اللاشعورية، وخاصةً عقدة أوديب.

ونودُّ الآن أن نُفصِّل القول في سببٍ هام من أسباب شفاء الزوجَين، هو الشعور بالغيرة؛ هذا الانفعال الغريب الذي يلعب دورًا هامًّا في حياة الإنسان منذ طفولته، ويطبع بطابعه كثيرًا من العواطف الاجتماعية. ويجب ألا ننسى شقيقه الأقرب «الحسد»؛ فالغيرة والحسد توءمان يسيران جنبًا إلى جنب في ظل توءمَين آخرين هما الحب والبغض. وهذه الانفعالات الأربعة هي بمثابة الاتجاهات التي تُعين أركان أو محاور المجال الوجداني، وما يقوم عليه من دوافع وحوافز وميول.

وتسلك الغيرة في نشأتها ونموها وظهورها مسالكَ شتَّى مُتنوعة؛ فقد تتكوَّن في الظلام وتنمو ببطء، ولا تكاد تظهر في مجال الشعور حتى تجد صاحبها في حالة خور وإعياء عاجزًا عن إبداء أي مقاومة، فتعمل الغيرة عملها الخبيث الدفين في هدم الأمل وتحطيم الصحة النفسية والجسمية في آنٍ واحد. وأحيانًا أخرى تتفجَّر الغيرة كالصاعقة، فتهزُّ بُنيان الحياة الزوجية هزًّا عنيفًا تاركةً وراءها الخراب والدمار.

ليس من السهل تحليل الغيرة، ووصف ما يُعانيه الغيران من حالاتٍ نفسية؛ نظرًا لتضارُب هذه الحالات وتعقُّدها؛ فقد نجد الشخص الذي يسلك سلوك الغيران يؤكِّد أنه لا يعرف الغيرة، وأن الغيرة ليست من أخلاقه، كما يحدث أن الشخص الذي يحق له أن يغار على زوجه يجهل تمامًا الظروف التي من شأنها أن تبعث الغيرة، كأنه لا يريد أن يرى أو أن يسمع، وذلك تحت تأثير دوافع لا شعورية، ولكن إذا حلَّلنا الغيرة كما تبدو في شعور الشخص، فيمكننا تعريفها وتفسيرها بكل سهولة، فهي: إحساسٌ مُزعِج مُؤلِم ناشئ عن كُره الغيران مشاركة شخص آخر في حقه بالشخص المحبوب.

فالغيرة عادةً تنشأ في موقفٍ ثلاثي يضم الحبيبَين والمُنافِس، وتنطوي على عدوانٍ موجَّه نحو المُنافس، وعلى الخوف من فقدان موضوع المنافسة. في مثل هذه الحالة يرجع منشأ الغيرة إلى ما يشعر به الغيران بما جرح كرامته، وبما يُهدد حقَّه في التملك المُطلَق للمحبوب.

وقد تنشأ الغيرة دون وجود شخص ثالث مُنافس، فتنحصر في موقفٍ ثنائي بضم الحبيبَين فقط، وتصبح الغيرة مجرد تعلُّق غرامي مُطلَق لا يعرف الغضب ولا المنافسة، بل يُثير باستمرار الخوف من فقدان المحبوب دون وجود أي أمر جديد بتبرير هذا الخوف، فيغار الغيران من كل شيء، كأن يغار من النسيم الذي يُداعِب شعر حبيبته.

ويمكن إرجاع جميع حالات الغيرة إلى التفاوت بين الرغبة والواقع، بين النزعة إلى التملك المُطلَق وما يُهدد هذه النزعة، بين ما يمكن أن نُسميه بالشراهة الوجدانية والقدرة على إشباع هذه الشراهة.

ويؤكد لنا التحليل النفسي أن الغيرة التي يُثيرها تدخُّل المُنافس لا تُحدِث في نفس الغيران هذه الألوان من العذاب المُضني إلا لأنها تُحرِّك عقدةً قديمة ترجع إلى الطفولة، هي عقدة أوديب التي تجعل الصبي يتعلق جنسيًّا بأمه، وينظر إلى أبيه نظرة الخصم إلى مُنافسه. وبقاء هذه العقدة يرجع إلى أن الحب الذي كان يشعر به الطفل، ولا يزال يشعر به الشخص في كِبَره، هو من نوع الحب التملكي الأناني الذي لم يتطوَّر إلى الحب القائم على إنكار الذات، وعلى هبة الذات بدون قيد ولا شرط. ونستنتج من ذلك أن الغيرة ليست حتمًا ودائمًا من مُستلزمات الحب.

فالحب الذي يُوحِّد بين قلبَين ويجعل منهما قلبًا واحدًا يتنافى مع الغيرة. وبقدر ما يكون الحب حبًّا تملكيًّا تكون الغيرة أشد درجةً وأكثر إيلامًا وتعذيبًا.

ولا يتحتَّم لإثارة الغيرة أن يكون الموقف ثلاثيًّا فعلًا، وأن يُوجَد المُنافس في الواقع، فكثيرًا ما تكون الغيرة غير مدعَّمة بأمورٍ خارجية، بل يكون مَبعثها الوهم والتخيل المَرَضي.

وقد تكون الغيرة ضربًا ممَّا يُسميه علماء النفس بالإسقاط؛ أي إلصاق صفة ذاتية بشخصٍ آخر، واتهامه بما يعتلج في النفس من رغباتٍ لا شعوريةٍ آثمة كوسيلة من وسائل التبرير والدفاع عن النفس. فالغيران يُسقِط على زوجه رغبته اللاشعورية في الفرار من قيود الزوجية، أو خيانة العهد الذي قطعه على نفسه، وهذه الرغبة عندما تدخل مجال الشعور تنقلب إلى عكسها: الزوجة هي التي ترغب في الخيانة وتسعى إليها. ويصبح

التأويل في ذهن الزوج تأويلًا مرَضيًّا، وليس في إمكان أقوى الأدلة على براءة المرأة تغيير رأي الزوج الغيران؛ لأنه يجد في محاربة زوجته ما يُخفِّف الألم الذي تُحدِثه في نفسه رغباتُه المكبوتة.

وهناك نوعٌ آخر من الغيرة مصبوغٌ بصبغةٍ مرَضيةٍ واضحة، ولا يمكن فهمه إلا في ضوء العلاج بالتحليل النفسي؛ فمن الحالات الشاذة تعلُّق الشخص بشخص من نفس الجنس، وقد يتزوَّج مثل هذا الشخص بعد أن يكون انحرافه قد كُبت إلى حدٍّ كبير، غير أن المكبوت لا يلبث أن يظهر في صورةٍ مُقنَّعة؛ فهذا الزوج المُنحرِف يُعاني اتجاهاتٍ لا شعوريةٍ نحو الأنوثة، أي نحو الاتصاف بصفات الأنثى؛ فهو في آنٍ واحد يتقمَّص شخصية زوجته، ويتمنى أن يكون له مُنافس لكي يُرضي نزعاته نحو الأنوثة عن هذا الطريق الالتفافي؛ أي عن طريق تقمُّص شخصية زوجته، بل لا يكتفي أن يتمنَّى وجود ما يُنافسه في حب زوجته، بل يسعى من حيث لا يدري إلى تهيئة الفرص لجذب المُنافس وخلق الموقف الثلاثي.

إن هذا التحليل قد يبدو للبعض تعسفيًّا خياليًّا وبعيدًا عن الواقع، ولكن ما العمل والنفس الإنسانية أكثر عمقًا وظلمة من قاع البحار، وأعقد مسلكًا من الغابات الاستوائية؟ والأدلة على صحة هذا التفسير كثيرةٌ تُقدِّمها لنا العيادات السيكولوجية؛ فقد وجد علماء التحليل النفسي ارتباط الغيرة بالجنسية المثلية في عددٍ كبير من الحالات التي عالجوها.

الواقع أن عوامل الانحراف والمرض النفسي تتفاعل باستمرار مع عوامل الصحة والسواء. ويمكن أن نؤكِّد أن غير قليل من التصرفات التي تبدو سليمة ومعقولة، خاصة في حالات الطلاق، هي في الواقع تصرفاتٌ مرَضية تحتمي وراء ستار من التبرير الكاذب. ونعتقد أن المشرع الذي يريد تنظيم أمور الزواج والطلاق من واجبه أن يُقيم حسابًا للعوامل النفسية اللاشعورية، التي تُعين كثيرًا من هذه التصرفات التي تبدو سليمة في حين أنها بعيدة عن الطريق السوي.

(٦) تصدُّع الحياة الزوجية

رأينا في الفقرة السابقة أن الغيرة سببٌ هام من أسباب شقاء الزوجَين، وأنها دليل على نوع من الحب سمَّيناه بالحب التملكي، هو مزيج من الشره الوجداني ومن الخوف؛ شرَهٌ وِجداني يُلح في الأخذ وفي الاستيلاء، ويجهل العطاء والبذل والتبادل؛ وخوفٌ من فقدان الطرف الآخر لضعف الثقة في النفس والشعور بالنقص. وكثيرًا ما تنفجر الغيرة بعد فترة

من التوترات العصبية الصامتة، فتهزُّ بعواصفها بُنيان الحياة الزوجية؛ ولكن هناك خطرًا آخر يُهدد سعادة الزوجَين لا يقلُّ أثره عن هذه المُشاحنات العنيفة التي تُثيرها الغيرة وإن كان هادئًا ساكنًا، وهذا الخطر هو تحويل الحياة الزوجية إلى سلسلة من الأفعال الآلية الرتيبة التي تتتابع في جوٍّ من الاستسلام والرضا السلبي. في مثل هذا الجو من الجفاف العاطفي يفقد الحب قيمته كعامل من عوامل تقوية النفس وتكامُل الشخصية، ويكتفي كل زوج بالقيام بما يعتقد أنه الواجب. ولا شك في أن القيام بالواجب في جوٍّ من عدم الاهتمام والمبالاة لا يلبث أن يُحوِّل الواجب إلى أمرٍ مُمل.

ولكي يتفادى الزوجان الحديثان التعرض لهذا الخطر، يجب عليهما أن يذكُرا أن الزواج ليس عقدًا كبقية العقود التي تُنظم معاملات الناس بعضهم مع بعض. ليس الزواج نهاية عهد يتصف بعدم الاستقرار، ثم الدخول في عهد من الثبات والاستقرار لا يتطلَّب مُواصلة المجهود لكي يحتفظ كل زوج بزوجه. كما أن الزواج لا يعني الدخول في منطقةٍ مجهولةٍ غير ظاهرة المسالك، يستسلم فيها المرء للصُّدف ولإلهامات اللحظة الراهنة.

إن الزواج عملية بناء وتكوين وتقدُّم متَّصلة الحلقات، تعترضها عقباتٌ يجب أن تكون موضع تبصُّر وتفكير؛ عمليةٌ تتطلَّب أحيانًا بعض التضحيات، ولكنها تتطلَّب دائمًا بذل المجهود لكي تسير إلى الأمام. فمن النادر أن يكون الحب في بدء الحياة الزوجية حبًّا كاملًا ناضجًا؛ فإن الجانب الحسي في الحب — وخاصةً عند المرأة — في حاجة إلى تربيةٍ دقيقة، على الزوج أن يقوم بها بكل رفق ولطف مدةً طويلة من الزمن؛ فقد قرَّرنا مرارًا أن طريق الأنوثة أشد وُعورةً من طريق الرجولة، وأن المرأة تستكمل نموها الجنسي في السنوات الأولى من حياتها الزوجية.

إن اتحاد الزوجَين جسمًا وقلبًا لا يمكن أن يتم دفعةً واحدة؛ فالتوافق العاطفي بينهما أمرٌ يجب تعلُّمه. وككُلِّ تعلُّم فإنه يقتضي اجتياز مرحلة من المحاولات والأخطاء والقدرة على الاستفادة من التجارب السابقة؛ فإن حسن الرويَّة مع الصبر والمثابرة كفيلٌ بتذليل العقبات والصعاب التي تعترض الحياة الزوجية في أطوارها الأولى.

ذكَرنا أن عقد الزواج ليس عقدًا تجاريًّا كبقية العقود ينصُّ بجانب الالتزامات والواجبات على العقوبات التي سيُطبقها القانون في حالة عدم القيام بالواجبات أو عدم تنفيذ الالتزامات. إن المثل الأعلى في الزواج أن يشعر كلٌّ من الزوجَين وفي كل لحظة من حياتهما أنه مُقبِل على شريك حياته حرًّا راضيًا، لا مجبورًا مضطرًّا تحت ضغط تعهُّد

لا يلبث أن يُثير الندم. فإذا كان كلٌّ من الزوجَين يشعر بأنه يهبُ نفسه للآخر في جوٍّ من الحرية والتقدير المُتبادَل، فلا شك أن هذا الشعور بالحرية أقوى عامل من عوامل إسعاد الزوجَين وتدعيم أواصر الحب والاتحاد.

بهذه الكيفية فقط يمكن مُحاربة المَلل الذي يستولي على كثير من الأُسر، والذي يُحول الحياة المنزلية إلى سلسلة من حالات القلق والتذمر واضطراب المزاج.

وكذلك لا بد من هذا الجو من الحرية والتقدير المُتبادَل لكي تحتفظ الأمانة الزوجية بكل قيمتها؛ فقد يظن بعضهم أن معيار الحياة الزوجية الناجحة هو أن يكون كلٌّ من الزوجَين أمينًا نحو الآخر، لا يُقدِم على عمل من شأنه أن يمسَّ سمعة الأسرة وشرفها. إن مثل هذا المعيار معيارٌ سلبي إذا كانت الأمانة مفروضة فرضًا ومبعثها هو الخوف من الآخر، والرغبة في تفادي المواقف المُعضِلة المُحرِجة؛ فإن مثل هذه الأمانة التي يتحمَّلها الزوج كحملٍ ثقيل لا قيمة لها؛ لأن الأمانة الحقَّة هي قبل كل شيء أمانةُ القلب والفؤاد، لا أمانة العبد المكبَّل بالقيود المادية. يجب أن تصدُر الأمانة عن حبٍّ صادق يقوم على الهِبة لا على التملك والسيطرة، ويجب أن يستند الإخلاص إلى الاعتقاد القوي والشعور العميق بأن الزوج في نظر الزوجة وبأن الزوجة في نظر الزوج هو الشخص المختار، وأن القلب عرشٌ مقدَّس لا يحتلُّه إلا هذا الشخص المُختار.

يتَّضح لنا ممَّا سبق أن الحب في الزواج لا يمكن أن ينمو ويقوى ويزدهر إلا في جوٍّ من الثقة والحرية والتقدير. فإذا سلك أحد الزوجَين سلوكًا يُثير الشك والريبة، أو إذا حاول أن يفرض قيودًا تعسفية لا مُبرِّر لها، أو إذا صدرت عنه أقوال أو أفعالٌ تمسُّ كرامة زوجه وتجرح إحساسه؛ فإن بُنيان الحياة الزوجية يأخذ يتصدَّع شيئًا فشيئًا، ولا يلبث الفتور الذي أصاب الجاذبية المعنوية التي كانت تجمع بين الزوجين أن يُصيب الجاذبية الجسمية فيزداد التوتر بينهما، ويصبح التكيُّف العاطفي والجسمي أمرًا عسيرًا. وممَّا يُضاعف سوء الموقف اعتقادُ كلٍّ من الزوجَين أنه ضحية الآخر، فيُحاول التعويض عمَّا يُعانيه من الاستياء والخيبة بالسعي وراء ما يُرضي رغباته وميوله خارج نطاق الأسرة، وقد يُركِّز الزوج كل اهتمامه في مهنته والزوجة في العناية الزائدة بأطفالها. وقد يكون التصرف حلًّا للموقف غير أنه حلٌّ ناقص؛ لأن فيه اعتداءً على حقوق الزوجية. والدليل على ذلك أن الزوجة قد تغار من مهنة زوجها، ويغار الزوج من أطفاله.

ومن الأسباب التي تُعكِّر صفو الحياة الزوجية وتزيد التوتر بينهما، عدمُ فهمِ كلٍّ من الزوجَين طبيعةَ الآخر، والفصل بين العنصرَين اللذين يُكونان الحب؛ العنصر الجسمي

والعنصر العاطفي. فمن واجب الزوج أن يُدرِك أن المرأة تُقدِّر إلى أقصى حدٍّ دلائلَ العطف والحنان، وأنها في حاجة إلى أن تشعر أنها موضع إعجاب وتقدير، وأنها ليست مجرد وسيلة لإشباع رغبات زوجها. ومن جهةٍ أخرى يجب على الزوجة أن تُدرِك أن مطالب الطبيعة البشرية في الزواج ليست مقصورة على مجرد العطف والحنان، بل تشمل رغباتٍ جسميةً في حاجة إلى الإشباع. وبهذا الصدد ينبغي أن نعلم أن عدم الأمانة الزوجية لا يرجع إلى المُغرِيات التي قد تُصادف المرء في الخارج، بل إلى تجاهل مطالب الزوجية الجسيمة وعدم إرضائها. لا نريد أن نقول إن ما يجب اتباعه هو الاستسلام للغريزة والاهتداء بنزعاتها، بل إنه من الضروري إخضاع الغريزة لنور العقل، ولكن دون أن يؤدي سلطان العقل إلى إماتة الغريزة وخنقها، بل إلى إرشادها وتهذيب قُواها الحيوية.

(٧) الطلاق

تمرُّ الحياة الزوجية بمراحل مختلفة، شأنها في ذلك شأن الكائنات الحية والمنظمات الاجتماعية، وتتطوَّر خلال هذه المراحل العلاقات بين الزوجَين، ويتَّخذ الحب الذي يربط بينهما صورًا جديدة من القوة أو الضعف، من التوتر أو الهدوء. وعوامل هذا التطور مُتعددة، بعضها خارجي وبعضها داخلي. ومن العوامل الخارجية التغيرُ الذي يلحق بالمستوى الاقتصادي للأسرة إما صعودًا أو هبوطًا، والحوادث الطارئة من أمراض وحروب وكوارث طبيعية ... إلخ. أما العوامل الداخلية المُلازمة لطبيعة الأسرة فأهمها اتساع دائرة الأسرة بولادة الأولاد؛ مما يؤدي إلى ظهور وظائف جديدة، وتكوين علاقات جديدة، أو إعادة تنظيم العلاقات الزوجية بحيث تضم عاطفة الأبوة والأمومة.

ويكون تطوُّر العلاقات الزوجية مصحوبًا بتطوُّر الحب بين الزوجَين. ونعني بالحب الحب الإنساني الواقعي الذي تتكامل فيه عناصر الحس والعاطفة والعقل، لا الحب البهيمي الأعمى، ولا الحب الخيالي الأفلاطوني، لا الأنانية التي تتقنَّع بقناع الحب، بل هذه الحركة الشاملة التي تدفع الشخص إلى أن يهبَ نفسه للآخر، ويعمل على إسعاده، هبةً تتجدَّد في كل لحظة؛ لأنها لا تقوم على نزوةٍ مُتقلِّبة أو رغبةٍ عابرة أو غرضٍ رخيص، بل لأنها تقوم على وعدٍ أبدي!

إن طريد الفردوس يحنُّ دائمًا إلى الجنة المفقودة. وإذا كان الإنسان كثيرًا ما يُخطئ اختيار الوسائل، ويضلُّ الطريق المؤدِّي إلى الخير والسعادة؛ فإنه لا يمكنه أن يُسكِت هذا

الصوت الذي يتصاعد من أعماق نفسه داعيًا إياه إلى تحقيق جميع إمكانياته من حق وخير وجمال.

هذا هو الدعاء الذي يظلُّ يسمع صوته، إن عاليًا أو خافتًا، خلال هذه المراحل التي يجتازها الحب الكامل عندما ينمو في جوِّه الطبيعي وفي تربته الطبيعية؛ أي في جو الحياة الزوجية وتربتها. ويمكن تحديد هذه المراحل في ثلاث: مرحلة التكوين الأول، وهي مرحلة اكتشاف وحماس؛ ثم مرحلة الأزمة والتوتر المُمهِّدة لنضج الحب، فترة توتر وعواصف لا بد منها لاستمرار عملية النمو؛ وأخيرًا مرحلة النضج، وهي مرحلة هدوء واستقرار تكون الاختلافات التي كانت قائمة بين الزوجَين قد تلاشت، فيزداد التشابه بينهما في العادات والأخلاق والآراء، بل قد يصل إلى حدِّ التشابه الجسمي. تلك هي صورةٌ تخطيطية لمراحل الحياة الزوجية: تكوين ثم أزمة ثم نضج. غير أن كل مرحلة جديدة لا تنفي السابقة، بل تتمثَّلها وتحتفظ بأهم عناصرها لكي تُواصل سيرها؛ فالحركة الطبيعية للنمو والاكتمال ليست تشتتًا وتفريقًا، بل حركة صعود لعناصر وعوامل أكثر غزارة وثراءً. ثم يجب أن نقول إن كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث الكبرى تمرُّ بعدة أطوار جزئية ثلاثية في تركيبها أيضًا؛ أي أطوار جزئية مُتعددة من النمو والأزمة والنضج.

وسبق أن تحدَّثنا عن بعض هذه الأزمات، وبعض عوامل تصدُّع الحياة الزوجية كالغيرة والملل والجفاف العاطفي والمظاهر العدوانية، غير أننا لم نتناول بعدُ هذه الأزمات التي تؤدِّي إلى انهيار الحياة الروحية، وقطع الصلة نهائيًّا بين الزوجَين، ونقصد الأزمات التي تنتهي بهجر منزل الزوجية والطلاق، وليس غرضنا أن نتناول جميع العوامل والأسباب التي تؤدِّي إلى الطلاق، بل سنقتصر على ذِكر أهم العوامل النفسية.

إن الطلاق كالزواج خاضعٌ للتشريع وللإجراءات القانونية، والسلطة التي تحكم بالطلاق أو ببطلان الزواج أو بفصل الزوجَين تعتمد في حكمها على أدلة ووقائع خارجية، ولا تعتني كثيرًا بالدوافع العميقة التي تتفاعل في نفس الزوج أو الزوجة. نعم إنه من واجب القاضي ومن واجب من يُعاونونه أن يُحاولوا تقريب وجهات النظر، وإرشاد الزوجَين لتصفية الجو وإتمام الصلح بينهما، ولكن من النادر أن تؤدِّي هذه المساعي إلى نتيجةٍ مُرضية؛ إذ كثيرًا ما تكون التهدئة مؤقَّتةً، ثم تعود الأزمة من جديد وتنبعث في صورةٍ أعنف ممَّا كانت عليه؛ وذلك لأن الأسباب التي يستند إليها طالب الطلاق ليست هي الأسباب الحقيقية، بل هي نوع من التبرير؛ فهو يعتقد أن الطرف الآخر هو السبب الوحيد لشقائه وبؤسه، وأن الوسيلة الوحيدة لينال قسطه من السعادة، وإن كانت سعادةً جزئية، هي أن تُتاح له الفرصة ليبدأ حياةً زوجية مع شخصٍ آخر.

قد يكون الأمر هكذا في بعض الأحيان، ولكن المُحلِّلين النفسيين يعتقدون أن معظم حالات الطلاق ترجع إلى عوامل نفسية لا شعورية، وتدخل في نطاق علم النفس المَرَضي؛ أي إن الشخص الذي لا يرى حلًّا للأزمات التي تتخلَّل بالضرورة الحياة الزوجية إلا الانفصال والطلاق ليس بالشخص السوي، وإن السبب الرئيسي الجوهري الذي يجعله يُفكر في الطلاق ثم يُهدد به ثم يُنفذه هو مرضٌ في نفسه، هو عدم نضجه العاطفي، هو هذه الأساليب السلوكية التي اكتسبها عندما كان طفلًا، والتي كانت عاجزة عن تحقيق التكيُّف الناجح في ميادين نشاطه المختلفة مع والدَيه وإخوته وأصدقائه وزملائه في المدرسة وفي المهنة. فهو يستخدم في حياته الزوجية نفس الأساليب الخاطئة التي اعتاد استخدامها من قبل؛ الأساليب التي تُوحي بها الأنانية الزائدة، وعدم الثقة في النفس، والخوف من المسئولية، وحب التملك والسيطرة الزائفة. وقد تصل هذه الاتجاهات في السلوك إلى حدِّ المرض النفسي الخفي الذي ينتهز مئات الفرص التي تُقدمها الحياة اليومية لكي ينشط ويتحرَّك وينفجر في جوٍّ من القلق والتوتر.

والمُشاهَد أن الشخص المُنحرِف مِثلَ هذا الانحراف النفسي لا يجد ما ينشُده من سعادة في محاولته الزوجية الثانية أو الثالثة؛ لأن أسباب الداء موجودة فيه، وهو يحملها معه مهما تغيَّرت الظروف الخارجية وتنوَّعت شخصية الزوجة الثانية أو الثالثة، إلا إذا كانت الزوجة الجديدة مُنحرِفة نفسيًّا بنوع من الانحراف يتلاءم مع انحراف الزوج، فيكونان وحدةً شاذة لا يمكن أن تقوم إلى حين إلا في جوٍّ خاص من الشذوذ والتوتر.

إن الدراسات النفسية التي قام بها المُحلِّلون النفسيون في عياداتهم لحالات الطلاق أو الرغبة في الطلاق، بيَّنت بوضوحٍ أن الطلاق لا يصلح أبدًا ليكون علاجًا لمثل هذه الأزمات، بل العلاج الناجع هو أن يفهم الراغب في الطلاق الدوافع اللاشعورية التي تجعله يُفكر في مثل هذا الحل؛ فعليه أن يُعالِج نفسه من العُقَد التي تعمل في أعماق نفسه، بل من المفيد — كلما هدَّد أحد الزوجَين الآخر بالهجر والطلاق — أن يستشير كلٌّ من الزوجَين المُحلِّل النفسي، وأن يطلبا العلاج المُلائم لحالتهما؛ فمن شأن العلاج النفسي أن يزيد المُعالَج استبصارًا ومعرفة بنفسه، وأن يُمكِّنه من تقدير الأمور تقديرًا واقعيًّا؛ ومن شأن هذا الاستبصار وهذا التقدير السليم أن يجعل المرء يُدرِك أن الأزمات والمشاكل ملازمةٌ للطبيعة البشرية، وأنها ضرورية لرقيِّ الإنسان وصعوده في سُلَّم الكمال، وأن بعض الأزمات العنيفة التي تهزُّ بناء الحياة الزوجية لا حل لها سوى التضحية.

(٨) الأطفال

في بدء كلامنا عن الزواج ومشكلاته أشرنا إلى أهم وظائف الأسرة، وذكَرنا أن الوظيفة الأولى هي إعطاء العلاقة الجنسية بين الزوجَين قيمتها القصوى من الوجهة الحسية والروحية؛ لأنه لا يمكن تحقيق السعادة بين الزوجَين إلا إذا كان الرباط الذي يربط بينهما رباطًا جسميًّا وروحيًّا في آنٍ واحد، ثم تأتي الوظيفة الثانية وهي الخاصة بتنشئة الأطفال وإعدادهم للحياة الاجتماعية.

وقد تناولنا الوظيفة الأولى بالبحث والدراسة مُبيِّنين طبيعة الحب المعقَّدة، وكيف يتم التوفيق بين الغريزة الجنسية وبين الحب من حيث هو عاطفةٌ سامية تقوم على الهِبة والبذل وإنكار الذات، ثم رأينا كيف تتطوَّر العلاقة بين الزوجَين مارَّةً بمراحل التكوين والأزمة والنضج. وفي كلامنا عن أزمات الحياة الزوجية تعرَّضنا لمشكلة الطلاق، وذكَرنا بعض العوامل التي تدفع أحد الزوجَين إلى هجر الحياة الزوجية وطلب الطلاق، واتَّضح لنا أن في كثير من حالات الطلاق تلعب الانحرافات النفسية دورًا خفيًّا تحت قناع من التبريرات العقلية.

ونودُّ الآن أن نتناول مشكلة الطلاق في ضوء وظيفة الأسرة في تنشئة الأطفال وإعدادهم للحياة الاجتماعية، وسنقتصر على الموضوعَين الآتيَين؛ أولًا: هل عدم إنجاب الأطفال سبب كافٍ لتبرير الطلاق؟ ثانيًا: ما هو مصير الأطفال من الوجهة النفسية في بيتٍ هدمه الطلاق؟

للإجابة على السؤال الأول، وهو هل عدم إنجاب الأطفال سبب كافٍ لتبرير الطلاق، يجب أن نعرف أولًا ما إذا كان للزواج غرضٌ أوليٌّ أساسي وغرضٌ ثانويٌّ فرعي. هل الغرض الأساسي هو الذي يتحقَّق في بدء الحياة الزوجية، وهو إشباع الرغبات الجنسية والعاطفية والروحية لكلٍّ من الزوج والزوجة، في حين يكون إنجاب الأطفال هو الغرض الثانوي المُتفرِّع من الأول؟ أو على العكس من ذلك، نعتبر أن غرض الأسرة الأولي والأساسي هو التناسل وإنجاب الأطفال، في حين يكون إشباع الرغبات الجنسية والروحية مجرد تمهيد للتناسل؟

لا شك في أن علماء الاجتماع والتشريع سيُقرِّرون أن الغرض الأساسي للحياة الزوجية هو إنجاب الأطفال لضمان بقاء الجنس، وأن من واجب الأفراد خدمة المجتمع والعمل على بقائه ونموه. ولسنا مُحتاجين إلى جمع الأدلة لتدعيم هذا الرأي؛ فقوانين الطبيعة البشرية

وتاريخ الإنسانية والنُّظم التشريعية والاجتماعية، كل هذه الأمور تؤيِّد القاعدة التي تجعل إنجاب الأطفال الغرض الأساسي للحياة الزوجية.

وإذا كانت هذه القاعدة صحيحة، فهل يتحتَّم أن يكون عكسها خطأً، وأن عدم إنجاب الأطفال يستلزم حتمًا فصل الزوجَين بعضهما عن بعض بالطلاق؟

ليس هذا الموضوع ممَّا يُسمَح بحله بنعم أو لا؛ فلا بد من تمييز الحالات المختلفة التي تعترض الباحث، والنظر في أسباب عدم الإنجاب والتناسل. فالقاعدة التي ذكَرناها تُحرِّم طبعًا تعمُّد منع النسل لأغراضٍ أنانية وفرارًا من المسئوليات، أما إذا كان عدم التناسل راجعًا إلى أسبابٍ خارجة عن إرادة الشخص دون تعمُّد ولا قصدٍ إرادي، ففي هذه الحالة يجب التمييز بين أمرَين؛ أولًا: عدم توافُر الشروط العضوية لإتمام الزواج. وفي هذه الحالة يُعتبَر الزواج كأنه لم يكُن، ويحقُّ للسلطة التشريعية إبطال عقد الزوج. ثانيًا: توافُر الشروط العضوية التي تسمح بإرضاء الغريزة الجنسية مع عدم توفُّر الشروط الفسيولوجية؛ أي في حالة العُقم الناتج عن نقص في وظائف الجهاز التناسلي؛ ففي هذه الحالة نجد اختلافاتٍ بيِّنةً بين علماء الاجتماع وعلماء النفس؛ فمن الوجهة الاجتماعية البحتة قد يُبرِّر العقم طلب الطلاق، غير أن علماء النفس ينظرون إلى أعمق من ذلك، فيُدافعون عن حقوق الفرد عندما يطغى سلطان المجتمع ولا يُراعى حق الفرد في تنمية ذاته وتحقيق إمكانياته العاطفية والروحية، ما دام استخدام هذا الحق لا يُلحِق بالمجتمع أي ضرر إيجابي.

ولتوضيح ذلك نقول إن الرجل الذي يُطلِّق زوجته لأنها عقيم لا يسلك هذا السلوك إلا لأن حبه ناقص، ولأنه ينظر إلى زوجته لا من حيث هي شخص يتمتَّع بالفكر والحرية، وبالخصائص التي تُميِّز الإنسان عن الحيوان، بل من حيث هي آلة ووسيلة؛ فالمشكلة ترجع إذن إلى طبيعة الحب القائم بين الزوجَين، وأن طلب الطلاق لسبب عُقم الزوجة لا يختلف في جوهره في نظر علم النفس عن طلب الطلاق لأسباب عدم الوفاق المزاجي والخلقي؛ أي إننا بصددِ أسبابٍ نفسيةٍ معظمُها لا شعورية ترجع إلى عدم النضج الانفعالي.

وما نريد أن نؤكِّده هو أنه من الممكن تحقيق السعادة الزوجية في حالة عدم إنجاب الأطفال؛ لأن الغرض الأساسي الذي يرمي إليه الحب هو اكتمال شخصية الرجل والمرأة أحدهما بالآخر. ثم يجب أن نذكُر أن العواطف مرِنة إلى حدٍّ كبير، وأن الميول قابلة للتحويل والإعلاء، وأن الطاقة العاطفية التي كانت ستُبذَل في رعاية الأطفال وتنشئتهم

يمكن إشباعها في ميادين أخرى من النشاط الاجتماعي أو الفني أو العلمي دون تفكُّك الحياة الزوجية.

نعم إن أنوثة المرأة لا تكتمل إلا بالأمومة، ولكن في حالة تعذُّر هذه الأمومة العضوية هناك أنواع من الأمومة الروحية قد تُرضي المرأة، وتمنحها لونًا من السعادة قد لا تقلُّ عن سعادة الأمومة العضوية، خاصةً أن معيار السعادة معيارٌ «ذاتي».

وما يُقال عن الزوجة يُقال أيضًا عن الزوج؛ فهو يشعر بأن الطفل الذي أنجبه والذي يحمل اسمه، هو إتمام لشخصيته الاجتماعية وتزكية لرجولته، ولكن في حالة تعذُّر الأبوة العضوية تُوجَد كذلك أنواع من الأبوة الروحية في إمكانه تحقيقها في صحبة شريكة حياته، دون أن يضطرَّ إلى تحطيم قلب، والحكم على امرأة، لا ذنب لها، بأن تعيش على هامش المجتمع.

وممَّا يدعم رأينا هذا هو أن الرجل الذي يعجز عن أن يحب زوجته من حيث هي غاية في ذاتها، لا من حيث هي مجرد أداة أو وسيلة، لا يتردَّد في طلب الطلاق حتى ولو كان له أطفال، نعم إن وجود الطفل قد يحمل الزوج أو الزوجة على التريُّث قبل الإقدام على الطلاق، غير أن وجود الطفل لا يحُول دائمًا دون تفكُّك الأسرة وتحطيمها؛ ممَّا يُقيم الدليل على أن إنجاب الأطفال لم يكن الغرض الأساسي للحياة الزوجية. فإن كانت الزهرة الجميلة أو الثمرة الطيبة دليلًا على جودة الشجرة وسلامتها، فليست الزهرة أو الثمرة هي جوهر الشجرة؛ فلا بد أن تكون الشجرة في جوهرها سليمة لكي تزدهر وتُنتج الثمار. وهل من الحكمة أن نقتلع الأشجار التي لا تُثمر، وأن نعدَّ شكلها الجميل وظلها الوريف أمرًا لا قيمة له؟ فالظل قد يكون رمزًا للأمان، وحاجة الإنسان إلى الأمان والطمأنينة لا تقلُّ عن حاجته إلى الطعام والشراب؛ فقد تفُوق السعادة المعنوية ما قد تُقدِّمه لنا الحواس من لذة ومتعة.

(٩) الأطفال هم الضحايا

تقول الباحثة الاجتماعية الفرنسية لويز هرفيو Louise Hervieu في حديثها عن جرائم الأحداث: «لا يُوجَد أطفالٌ مُذنِبون، بل الأطفال هم دائمًا ضحايا.» لا شك في أن الطفل في السنوات الأولى من حياته هو مُحصِّلة العوامل الوراثية والبيئية التي تؤثِّر فيه، وتتفاعل باستمرار في ميدانٍ لا يكاد تُوجَد فيه في بادئ الأمر أيُّ مقاومةٍ صادرة من الطفل نفسه؛ فهو في حاجة لكي ينمو إلى تلقِّي الآثار المادية والمعنوية في الوسط العائلي.

وفي حالة اضطراب نشأته وإصابته بشتَّى الانحرافات في طبعه وسلوكه، أي عندما يكون ضحية الظروف التي تُحيط به، هل يقع الذنب كله على الوالدَين وعلى البيئة العائلية؟ ألا يمكن القول بأن الوالدَين إلى حدٍّ كبير أو صغير هما بدَورهما من ضحايا الظروف التي أحاطت بطفولتهما؟ قد يكون ذلك. وإذا استرسلنا في هذا اللون من التفكير والتعليل لانتهينا إلى القول بأن المُذنِب الأكبر هو المجتمع ونُظُمه الناقصة الظالمة، ولكن مثل هذا القول لا يُجدي ولا يُفيد، ويجب أن نذكُر دائمًا أن في إمكان الإنسان بفضل ما أُوتِي من عقل وإرادة أن يُقاوِم الآثار السيئة التي تُحيط به، وأن يصبح إلى حدٍّ كبير مسئولًا عن نفسه وسيد مصيره.

وما دام مستقبل الإنسان من اتزان أو انحراف، من توافُق أو فشل، من سعادة أو تعاسة، يتوقَّف إلى مدًى بعيد على سنوات الطفولة، وطبيعة الجو الاجتماعي الذي اكتنف هذه السنوات؛ فمن واجبنا أن نبحث جديًّا في أثر الأسرة التي فكَّكها الطلاق في تنشئة الطفل وتكوين اتجاهاته وتوجيه ميوله.

من الحقائق الثابتة عقلًا وتجريبًا أن البيئة الوحيدة المُلائمة لنمو الطفل الجسمي والنفسي ولتنشئته الاجتماعية هي البيئة العائلية؛ هذه المجموعة الموحَّدة المكوَّنة من الأم والأب والابن. في هذه البيئة يجد الطفل المَعونة المادية والمعنوية، وأحسن الفرص لتقوية شخصيته، ولتعلُّم أساليب التضامن والتعاون وضبط النفس. وإذا اختلَّ توازُن الأسرة فلا بد من أن يؤدِّي هذا الاختلال إلى اضطراب تنشئة الطفل بطريقةٍ صالحةٍ مُتكاملة. وقد يختلُّ هذا التوازن إما بوفاة أحد الوالدَين، أو بهجره المنزل، أو بتغيُّبه عنه فتراتٍ طويلةً، أو بتفكُّك الأسرة بالطلاق؛ ففي جميع هذه الحالات يُحرَم الطفل من سندٍ قوي هو في حاجة إليه لنموه الوجداني والاجتماعي؛ غير أن أثر كل حالة قد يختلف عن الآخر، والآثار التي يُحدِثها الطلاق أو انفصال الوالدَين تفُوق في خطرها آثار الوفاة أو الغياب؛ لأن الأولى تحدُث في جوٍّ من التوتر والبغض، وتبدأ هذه الآثار تعمل عملها بطريقةٍ خفيةٍ خبيثة قبل إتمام الطلاق، كما أنها تستمرُّ بعده. فحالة الطلاق وإن كانت تُعتبَر من الوجهة القانونية انتهاءً وخاتمة لمرحلةٍ سابقة، فهي من الوجهة النفسية والاجتماعية حالةٌ معلَّقةٌ غير مُنتهية ولا مغلقة على نفسها. ومن شأن الحالات المعلَّقة أن تُحدِث القلق المستمر، وأن تُثير النزاعات القديمة، وأن تبعث ألوانًا جديدة من الصراع النفسي.

ولا يقتصر أثر العائلات المفكَّكة على حالة الطفل من الوجهة النفسية فحسب، بل يتعدَّاه إلى سلوكه الاجتماعي. وتُوضِّح لنا الدراسات الاجتماعية والقضائية مدى هذا الأثر

في جرائم الأحداث؛ فقد وُجد أن نسبة الأطفال المُجرِمين الذين يأتون من عائلاتٍ فكَّكها الطلاق والانفصال أو وفاة أحد الوالدَين، تتراوح بين ٥٠ و٦٥ في المائة. ولا يتناول هذا التقدير الكمِّي إلا الأحداث الذين أُحيلوا إلى محاكم الأحداث ودخلوا الإصلاحيات. ولا شك في أن هناك حالاتٍ أخرى ظلَّت محصورة داخل جدران المنزل، ولم تتحوَّل إلى أعمالٍ عدوانية ضد المجتمع.

ويظهر من بعض الإحصاءات التي تناولت جرائم الأحداث وانحرافات سلوكهم، أن نسبة الأُسَر التي يمكن اعتبارها من الأُسَر السوية هي ١٢٪ فقط، في حين أن نسبة الأُسَر المفكَّكة بلغت ٨٨٪. ومن أسباب تفكُّك الأسرة التي ذُكرت في هذا البحث:

الطلاق – انفصال الزوجَين – وفاة أحد الوالدَين – زواج أحد الوالدَين مرةً ثانية – الحياة الزوجية غير الشرعية – المرض.

وممَّا هو جدير بالملاحظة، أن نسبة حالات الطلاق والانفصال تُعادِل نسبة وفاة أحد الوالدَين؛ ممَّا جعل بعض الباحثين يذهبون إلى أنه ليس الطلاق في حد ذاته هو السبب في تشويه نمو الطفل الانفعالي وانحراف سلوكه، بل العامل الأساسي هو حرمان الطفل من أحد والدَيه، سواء كان هذا الحرمان نتيجة الطلاق أو الوفاة.

لا شك في صحة هذا الرأي، غير أنه ناقص، ولا يذهب إلى ما وراء الأرقام للبحث عن أوجُه الاختلاف بين آثار الطلاق وآثار الوفاة في نفسية الطفل، وفي نوع علاقته مع من يعيش معه من الوالدَين.

فكثيرًا ما يحدث أن يصبح الطفل بين الوالدَين المطلَّقين وسيلةً من وسائل الضغط أو الإغراء، ومجالًا للمنافسة بينهما، مُحاوِلًا كلٌّ منهما أن يُوحي إلى الطفل، بواسطة الهدايا والوعود، أنه موضع حبه ورعايته؛ فإذا كان الطفل يعيش مع أمه، فيُحاول الأب بجميع الوسائل اجتذاب حب الطفل وتنفيره من أمه، فيظل الطفل يُعاني من والدَيه، ومن اتجاهاتهما الانفعالية المُنحرِفة.

وقد يحدث أن يستغل الطفل الحالة الشاذة الناشئة من طلاق والدَيه، فيُحاول التلاعب بهما لإرضاء أنانيته ونزواته، فيُضيف إلى ما أصابه من انحراف واضطراب في نموه الوجداني اتجاهاتٍ سلوكيةً شاذة، ستعُوق في المستقبل توافُقه الاجتماعي، وتُعرِّضه لألوانٍ جديدة من الحرمان والإحباط عندما تُواجهه مواقف معقَّدة تتطلب منه قسطًا غير يسيرٍ من المرونة والأمانة والتضحية.

غير أنه يجب علينا ألا نُعمِّم بسرعة، خاصة ونحن بصدد موقف تتفاعل فيه عددٌ كبير من العوامل قد نجهل بعضها؛ فآثار الطلاق على الأطفال قد تختلف من حالة إلى أخرى، كما قد تختلف آثاره على الزوجَين.

كما يجب أن نقول إنه لا يكفي أن تكون الأسرة في ظاهرها مُتماسكة لكي نقول بأن تنشئة الأطفال ستكون حتمًا صالحة وجيدة؛ فالمواقف السلبية في التربية لا تُجدي بل هي ضارَّة؛ فهناك المجهود الإيجابي الذي يجب بذله باستمرار لإحكام تربية الطفل على أُسسٍ صالحة حتى ينشأ متَّزنًا ناضجًا مُتوافقًا في مجتمعه.

فالأم التي تُدلِّل طفلها وتُعامله معاملةً ضعيفةً غير حازمة، قد تُسيء إلى طفلها إساءةً تفُوق ما قد يلحقه من أثر الطلاق، أو حرمانه من والده بسبب الغياب الطويل أو الوفاة؛ فواجب الأم أو الأب أن يتساءل دائمًا: ما هي أحسن الوسائل في هذه الظروف أو تلك الظروف لكي أضمن لطفلي تربيةً أخلاقيةً سليمة؛ وبالتالي لكي أضمن له مستقبلًا سعيدًا؟

(١٠) الزواج المثالي

عندما يتناول عالم النفس موضوع الزواج بالبحث والدراسة في ضوء الحالات التي تُعرَض عليه، نجده يميل إلى إبراز العوامل التي تجعل من الزواج مهمةً عسيرةً شاقَّة، مُشيرًا إلى نواحي الشذوذ والانحراف، مُتحدثًا خاصَّةً عن أسباب الشِّقاق والنفور وعدم التكيُّف بين الزوجَين. ومن اليسير تعليل مثل هذا الاتجاه لاهتمام السيكولوجي بالنواحي العملية، وبتقديم العلاج للمشكلات التي يُستشار فيها. ثم إنه من المعلوم أن تحليل الظواهر السوية، وكشف العوامل التي تُعينها، أصعب بكثير من تحليل الظواهر المَرَضية الشاذة؛ وذلك لانسجام هذه العوامل بعضها مع بعض، واختفائها وراء النتيجة النهائية، في حين أن المرض يُفكِّك الظاهرة، ويكون بمثابة التجربة العلمية التي يقوم بها العالم لتغيير الظروف والشروط.

فقد قيل بحقٍّ إن الشعوب السعيدة لا تاريخ لها، وكذلك يبدو الزواج الهادئ السعيد أمرًا يسير التفسير؛ لأن تفسيره يتلخَّص في عبارةٍ واحدة، وهي أن كلًّا من الزوجَين وُفِّق في اختيار الآخر. غير أن هذا التفسير عديم الفائدة في الوجهة العملية؛ فالأمر الذي يهمُّنا هو معرفة الشروط التي يجب توافُرها لكي يُوفَّق كلٌّ من الزوجَين في اختيار الآخر.

أما في حالات الزواج الفاشل، فإن الاضطراب الذي يُصيب الحياة الزوجية من شأنه أن يُبرِز بعض العوامل بصورةٍ واضحة، فيسمح بدراستها وتحليلها، وبالوقوف على نواحي التضخم أو النقص أو الانحراف. وقد سبق أن تحدَّثنا بالتفصيل عن المشكلات التي تعترض الزوجَين في مستهلِّ حياتهما الزوجية، ثم عن الغيرة وبعض عوامل تصدُّع الأسرة، وعن الطلاق وأثره في مصير الأطفال من الوجهة النفسية والاجتماعية. وقد يبدو لنا في ضوء هذه الدراسة أن تحقيق السعادة والوئام في الزواج أمرٌ شاقٌّ جدًّا؛ ممَّا قد يدفع البعض إلى التشاؤم واليأس. غير أنه يجب أن نذكُر أن معرفة أسباب المرض والانحراف هي في الوقت نفسه معرفة أسباب الصحة والسواء، ومعرفة حقائق الأشياء من أنجع الوسائل لُمحاربة التشاؤم وبعث التفاؤل في النفوس. ونودُّ اليوم أن نستخلص من دراسة الحالات الشاذة أهمَّ الشروط لتحقيق السعادة في الزواج، وسيتبيَّن لنا أن الزواج الناجح السعيد ليس أسطورة من الأساطير، بل أمر في وُسع الطبيعة البشرية أن تُحققه بشرط أن نفهم جوهر هذه الطبيعة وما يُلائمها من نُظمٍ اجتماعية، وبشرط أن نعمل بكل إخلاص لتهيئة الظروف المناسبة لتنمية جميع إمكانيات الإنسان، ولصيانة النُّظم الاجتماعية الكفيلة بتنمية هذه الإمكانيات إلى أقصى حد.

لا شك في أن الزواج نظامٌ يخضع لقيودٍ اجتماعيةٍ معيَّنة، وأن الرابطة التي تربط بين الزوج والزوجة يجب أن تكتسب صفةً شرعية. وقد اتخذ الزواج في تاريخ الإنسانية صورًا مختلفة تحت تأثير بعض العوامل الاقتصادية أو الدينية، غير أن هناك صفةً ثابتة تُلازم الزواج في جميع المدنيات، القديمة والحديثة، وهذه صفة الدوام والاستقرار؛ فالرابطة الزوجية رابطةٌ مُستديمة لا يقطعها إلا الموت.

ثم يتَّضح لنا من دراسة التاريخ وتطوُّر الوعي الإنساني أن الاتجاه السائد في تنظيم الحياة الزوجية هو الانتقال من نظام تعدُّد الزوجات إلى الزواج بواحدة. وليس من الغريب أن تكون المرأة نفسها هي التي تُطالب بأن تكون شريكة الرجل الوحيدة، عندما تُدرِك أنها ليست سلعةً اقتصادية، أو وسيلة من وسائل إرضاء شهوة الرجل، بل غاية في ذاتها، لها من حيث إنها إنسانٌ نفسُ حقوق الرجل من احترام وكرامة.

والآن علينا أن نطرح السؤال الآتي: هل صفة دوام رابطة الزواج حتى الموت، ومُطالبة المرأة بأن يكون الزواج بواحدة من الأمور التي أحدثها تطوُّر الإنسانية ونمو الوعي النسائي، أم هي مُتأصلةٌ في الطبيعة البشرية، وأن التطور الذي نُشاهده اليوم هو مجرد بُزوغ لأصولٍ موجودة في طبيعة الإنسان؟

للرد على هذا السؤال يجب أن نستطلع رأي علماء النفس؛ فمعظمهم يعتقدون أن صفة الدوام وميل المرأة إلى أن تكون هي الزوجة الوحيدة جزءٌ من الطبيعة البشرية؛ فقد دلَّت الدراسات التي تناولت المبادئ التي يخضع لها نمو الحياة الإنسانية على أن هذا النمو، عندما يكون سويًّا، يرمي دائمًا إلى تحقيق هدف نهائي مُستقر. فالدوام والثبات والاستقرار من دلائل النضج الوجداني والعقلي، أما الشخص المُنحرِف غير الناضج، فإنه يكون دائمًا في حالة تردُّد وشك، مُتقلِّب المزاج، غير مُستقر في سلوكه، غير ثابت في عمله، قد يعتقد أنه أرقى من غيره لأنه يتمتَّع بحريته كيفما شاء، والواقع أنه أسير نزواته، واندفاعه إلى العمل لا يدوم طويلًا؛ لأنه لا يُحسِن اختيار الهدف، بل يعجز عن إدراك الأهداف الإنسانية العليا؛ فقانون النمو السوي إذن هو الاتجاه نحو تحقيق هدف معيَّن.

وهذا القانون ينطبق أيضًا على الحياة الجنسية؛ فالإنسان يميل إلى تحقيق صورة ثابتة مُستقرة من العلاقة الجنسية، وهذه الصورة تتحقَّق في الزواج الدائم المُستقر.

وبجانب هذا الميل إلى الثبات والاستقرار، يُوجَد ميلٌ آخر يُميِّز العقل الإنساني، هو رد المُتعدِّد إلى الواحد والبسيط، وإرجاع الأنواع المختلفة إلى نوعٍ واحد، ومحاولة الكشف عن مبدأٍ واحد للتفسير والتعليل. وليست هذه النزعة إلى التوحيد مقصورة على التفكير الفلسفي والعلمي، بل هي تُسيطر أيضًا على حياتنا العملية. ثم يجب أن نذكُر أن لُبَّ الزواج ليس الحب وحده، بل أمرٌ يفُوق الحب في عمقه وشموله. إن عالم الحب مُغلَق، في حين أن عالم الزواج متَّجِه نحو الخارج نحو عالم النشاط والإنتاج، ومن الخطأ أن يعتقد بعض الرجال أن الزوجة تحدُّ من حرية الزوج. إن مهمة الزوجة أن تتوسَّط بين زوجها وبين العالم الخارجي، أن تزيد من قدرته وكفاءته؛ فرِضاها وتقديرها لنشاط زوجها في مهنته من أهم أسباب نجاحه في كفاحه اليومي.

فالرجل الذي يُحجِم عن الزواج خوفًا من فقدان حريته لا يفهم معنى الحرية الحقَّة؛ فالحرية في نظره هي عدم المسئولية، أما الحرية الحقَّة التي يتمتَّع بها الرجل المُتزوج المتَّحِد بزوجته بكل إخلاص ووفاء، فهي شعوره بالطمأنينة، وبأنه يعيش في سلام مع نفسه ومع العالم.

وهنا تتَّضح لنا عظمة الرسالة المُلقاة على المرأة؛ رسالة النهوض بالإنسانية، والمحافظة على كرامتها، والعمل على إسعاد الأجيال القادمة؛ فعَليها كأمٍّ أن تُنمي في أولادها روح الواجب، روح إنجاز العمل ومواصلته حتى تحقيق الهدف، أن تُنمي فيه الشعور بأن الحياة تصبح عديمة المعنى إن لم تجذبها أهدافٌ عالية. بهذه الكيفية ينضج الطفل

تدريجًا حتى يُدرِك قيمة الثبات وإنجاز العمل، وقيمة الإخلاص الدائم للمبادئ التي تعلَّمها.

وعلى المرأة كزوجةٍ أن تزيد زوجها ثقةً في نفسه، وأن تُوفِّر له أسباب النشاط المُثمِر المُنتِج، وأن تجعله يشعر أنه في وُسعها أن تملأ حياته، وأن تحقق كل ما كان يتمنَّى من سعادة وهناء في حياته الزوجية.

(١١) الوفاء في الزواج المثالي

إن التحليل العلمي بطبيعة الرجل والمرأة من الوجهتَين الجسمية والنفسية يؤدِّي بنا إلى نتيجةٍ هامَّة، وهي أن الزواج ليس أمرًا عرَضيًّا يُوجَد في ظروفٍ اجتماعية معيَّنة، ويتغيَّر ويتلاشى إذا تغيَّرت هذه الظروف، بل هو أمرٌ مُلازم لطبيعة الإنسان، وعنصرٌ جوهريٌّ ضروري لكي تكتمل الحياة البشرية. والزواج في لُبِّه وأساسه هو قبولُ كلٍّ من الرجل والمرأة أن يعيشا معًا حتى الموت في ظل الشرع والأخلاق؛ أي إن معنى الزواج يستلزم حتمًا معنى البقاء والدوام والاستقرار؛ غير أن المهم هو ليس تحقيق الدوام والاستقرار بطريقةٍ خارجيةٍ مادية على الرغم من الشِّقاق الداخلي وتوتُّر الحياة الزوجية، بل المهم هو أن يقوم الاستقرار والدوام على أساس من الوئام والتفاهم، وعلى نيةٍ صادقةٍ قوية للمحافظة على هذا الوئام، ولتقوية هذه الرابطة الجسمية والمعنوية في آنٍ واحد، التي تجعل من الزوج والزوجة وحدةً مُتماسكةً مُتضامنة الأطراف. ويمكن تلخيص جميع الشروط التي تضمن بقاء هذه الوحدة وتنميتها في كلمةٍ واحدة: الوفاء.

وكما أن هناك صورًا مختلفة لحالات الزواج التي تبدو لنا مُستقرة إذا نظرنا إليها من الخارج، يُوجَد أيضًا صورٌ مختلفة للوفاء؛ فبجانب الوفاء الخالص الحر الذي لا تشوبه شائبةٌ تُوجَد أشكال من الوفاء المزيَّف، أو من الوفاء السلبي الذي فقد روح الإخلاص، أو من الوفاء المُصطنَع الكاذب الذي لم يعُد سوى قناع لإخفاء ما وراءه من انحلال وموت.

ولكي نفهم تمامًا طبيعة الوفاء الخالص الذي يقوم عليه الزواج المثالي، يجدر بنا أن نقف قليلًا عند طبيعة الزواج من الوجهة السيكولوجية، وأن نكشف عن سِمته الجوهرية بعد أن نستعرض أهم عناصره كما تبدو لنا خلال خبرتنا النفسية.

لا شك في أن الزواج المثالي يستلزم وجود عنصرَين أساسيين، هما الجاذبية الجنسية أولًا ثم الحب. غير أن الزواج المثالي لا يمكن أن يقوم على الجاذبية الجنسية وحدها؛ لأنها معرَّضة للتغيُّر والزوال كسائر الأمور الحسية، ولا بد من أن تدعمها عاطفة الحب.

وحتى الحب وحده لا يكفي لإقامة الزواج المثالي؛ لأنه هو أيضًا عُرضة للتقلب والزوال، بل للانقلاب إلى ضده، خاصةً عندما يأخذ صورة الولوع والغرام. فالحب الذي لا يندمج في الحياة الزوجية، ولا يستمدُّ منها أسباب النمو والبقاء، هو بمثابة مُغامرة يستسلم لها الإنسان دون وعي أحيانًا، ودون أن يدري أبدًا كيفية تطوُّرها ووقت انتهائها. ففي الحب من حيث هو مجرد اندفاع عاطفي جانبٌ غريزيٌّ لا إرادي؛ ولهذا السبب قد يُصاب بتطوراتٍ فجائية تؤدِّي به إلى الفتور والزوال، أو تُحوله إلى مأساةٍ مؤلمة.

أما الحب في ظل الحياة الزوجية فإنه يكتسب روحًا جديدة؛ لأن الزواج مهمةٌ جديَّة تقوم على جانبٍ كبير من التفكير الموجَّه ومن العزم الإرادي؛ ولذلك قد لا نلوم أنفسنا إذا خاننا الحب، ولكن فشلنا في الزواج يترك فينا دائمًا الشعور بأننا أخطأنا وأسأنا التصرف.

ويتَّضح لنا الفرق بين عالم الحب وعالم الزواج بالمقارنة بين العلاقة السيكولوجية التي تربط بين العاشقَين وتلك التي تربط بين الزوجَين؛ ففي الحالة الأولى يعيش العاشقان في عالمٍ مُغلقٍ مُنعزلٍ أنانيِّ النزعة، وينظران إلى الآخرين نظرةَ شك وريبة قد تتطوَّر إلى نوع من الاتهام، كأن يخشى كلٌّ منهما أن يفقد الآخر. وفي مثل هذا الجو من التملك المُطلَق تنبت بُذور الغيرة بسهولة، ويصبح الوفاء أمرًا مهدَّدًا باستمرار.

أما في حالة الحب الزوجي، فلا يكون الزوج مُستغرقًا في حب الآخر كما هو الحال لدى العاشقَين، بل يكون عالم الزواج قابلًا للنمو والتوسع مُرحبًا بكل جديد، وكلما اتَّسع نطاق الأسرة زادت أواصر الحب بين الزوجَين قوةً وشدة؛ لأن الحب في كنف الزواج يكون قد تطهَّر من النزعة إلى الامتلاك والاستئثار ليصبح قدرةً لا نهاية لها للبذل والعطاء والتضحية.

فالشعور الذي يربط الزوج هو الشعور بأن كلًّا منهما للآخر، لا بأن الواحد هو ملك الآخر؛ الشعور بأن الاثنين مُكملان لبعضهما بعضًا، وتنمو شخصيةُ كلٍّ منهما في جوٍّ من الحرية داخل هذه الوحدة التي نُسميها بحقٍّ الوحدة الزوجية. والحياة الزوجية تطبع شخصية الزوجَين بطابَعٍ خاص لا يمكن امِّحاؤه، فيشعر كلٌّ منهما أنه أصبح جزءًا من كلٍّ. إنه انضم إلى الجزء الذي يُكمله، إنه يُكون معه المجتمع الأصغر؛ هذه الخلية التي تدخل في بناء المجتمع البشري الأكبر. وبتكوين هذا المجتمع الأصغر المُستقر يُرضي الإنسان نزعةً عميقة في طبعه؛ النزعة إلى الحياة الاجتماعية، إلى الفرار من العزلة والوحشة، كما أنه يُحقق صورةً جديدة، وإن كانت مختلفة في عناصرها، للرابطة التي كانت تربط الطفل بوالدَيه. إننا نعلَم أن في سن المُراهقة يثور المُراهق على القيود المفروضة عليه، ويضيق

ذَرعًا بسلطة والدَيه، فينشُد التحرر من القيود، ويطلب الاستقلال، ولكن بعد سنوات يصبح عبء الحرية ثقيلًا، ويبدأ يشعر بالوحشة المعنوية رغم نشاطه وأعماله، وعندئذٍ يُدرك أنه ليس من الخير أن يظل الإنسان مُنفردًا، فيسعى إلى اختيار شريك حياته، إلى اختيار هذا الشخص دون غيره لكي يقضي حياته في معيَّته؛ ولهذا السبب يكون الزواج من الوجهة السيكولوجية، وفي ضوء معرفتنا لطبيعة الإنسان، مطبوعًا بطابع الدوام وعدم الانفصام؛ فهو ليس مغامرةً غرامية تُسجَّل في محكمة أو تُدمغ بدمغةٍ رسمية، بل المرحلة الطبيعية التي يجب اجتيازها لإتمام الطبيعة البشرية، وإرضاء نزعتها الاجتماعية العميقة.

ولكن على الرغم من أن الحب ليس هو أساس الزواج وجوهره، غير أنه يؤدِّي دوره الضروري في جميع مراحل الحياة الزوجية. فبفضل الحب يكشف الإنسان من هو جديرٌ بأن يُشاركه في حياته؛ لأن عاطفة الحب وسيلة من وسائل المعرفة قد تفُوق في دقتها ونفوذها وسائل المعرفة العقلية البحتة. ولكن إذا كان يجب أن نحب الشخص الذي اعتبرناه جديرًا بأن يكون شريك حياتنا، فليس معنى هذا أن كل من يُحرِّك فينا عاطفة الحب يصلح لكي يكون زوجًا؛ لأنه، كما سبق أن قلنا، الزواج مهمةٌ يقتضي تنفيذها الحكم السليم والعزم الإرادي وروح المسئولية.

وبفضل الحب تتلوَّن الحياة الزوجية بألوانٍ زاهية، فيشعُّ في الجو العائلي روح الأمل والتفاؤل، وتصبح الأعباء اليومية أيسر وأخف وطأة، وعلى رغم من تطوُّره مع السنوات يظل الحب الزوجي مَبعث الاطمئنان والهناء.

غير أن جوهر الزواج ليس الجاذبية الجنسية ولا الحب نفسه، بل كما قلنا تحقيق هذه الرغبة العميقة في الإنسان إلى أن يكون مع الشطر الثاني الذي يُكمله؛ ولهذا السبب تظل الرابطة قوية بين الزوجَين بعد أن تكون الحواسُّ قد هدأت؛ فسعادتهما هي أن يكون الواحد مع الآخر، أن يجلس معه، أن يعيش معه، أن يُشاركه جميع ظروف الحياة في السرَّاء والضرَّاء. وليس المهم أن يعمل أحد الزوجَين شيئًا ما لكي يُثبت للآخر أنه يحبه كأن هناك شكًّا يجب تبديده، بل المهم أن يُدرك بل أن يُحس دون تفكير أنه مع زوجه؛ فلُبُّ الزواج الحقيقي هو هذا الشعور بالمعيَّة، وبأن هذه المعيَّة أمرٌ طبيعي لهذه الوحدة الزوجية التي اندمج فيها الطرفان اندماجًا كليًّا. وفي مثل تصوُّرنا هذا للزواج الحقيقي يصبح الوفاء أمرًا طبيعيًّا ونتيجة حتمية لهذه المعية الزوجية؛ لعدم وجود ما من شأنه إصابة الرابطة الزوجية بأي ضعف أو تفكُّك.

(١٢) ألوان من الوفاء

ليس من العبث أن نتحدَّث عن الزواج المثالي بحجة أن الأمور المثالية أمورٌ خياليةٌ بعيدة المنال؛ فإن الإنسان ينزع دائمًا بطبيعة عقله وفؤاده إلى ما هو أحسن وأرقى، هو ينزع دائمًا إلى تحقيق أهداف، وقد لا يُحسِن أحيانًا اختيار الهدف، فنراه يبحث عن هدفٍ آخر يجد في تحقيقه إشباعًا لرغباته العميقة، ولما ينشُده من استقرار وثبات.

وعندما تحدَّثنا عن الزواج المثالي وصِلته بالوفاء انتهينا إلى النتيجة الآتية، وهي أن الزواج المثالي لا يُعاني أبدًا مشكلة الوفاء من حيث هو عملٌ خلقي يتطلَّب بذل المجهود لُمواجهة الظروف المُعادِية والتغلب عليها؛ وذلك لأن تعلُّقَ كلٍّ من الزوجَين بالآخر وإخلاصهما القوي من شأنهما أن يُحصِّنا الزوج والزوجة ضد أي إغراء جنسي يأتي من الخارج. وهذا لا يمنع الزوجَين من أن يختلطا بالآخرين، وأن يُعاشرا الناس وأن يُقدرا صفاتهم؛ غير أن نظرة الزوج إلى أي امرأة أخرى أو نظرة الزوجة إلى أي رجل آخر، تكون نظرةً مجردةً نزيهةً غير مُغرِضة. تلك هي الحال في الزواج المثالي الذي يكون فيه الزوجان متَّحِدَين اتحادًا كليًّا. أما إذا انحرف الزواج، وأخذ يتصدَّع لسبب من الأسباب، فعندئذٍ يصبح العالم الخارجي وما فيه من رجال ونساء مصدر إغراء وفتنة. وفي هذه الحالة يتَّخذ الوفاء شكلًا جديدًا، فيصبح واجبًا خلقيًّا، بل عبئًا خلقيًّا قد يكون من العسير تحمُّله. وعندما يتَّخذ الوفاء في شعور الزوج أو الزوجة شكل الواجب، فهذا دليل على أن هناك خطرًا يُهدد الزواج من الداخل، وأن تصدعًا قد حدث في بناء الزوجية سيتسلَّل منه العدو الخارجي للقضاء على هذا البناء.

والنتيجة التربوية التي نستخلصها من هذا التحليل هي أنه لا يكفي تلقين المبادئ الخلقية من الخارج على صورة تدريب يعتمد على الضغط أو التخويف، بل ليس من الكافي أن يقتنع العقل بسموِّ المبادئ الخلقية دون أن تصبح هذه المبادئ جزءًا لا يتجزَّأ من الشخصية والدافع الأساسي العميق الذي يُعين السلوك ويُوجهه؛ فليس من المنطق أن نتهاون مع الطفل أو مع المُراهق إذا لجأ في بعض تصرُّفاته إلى أساليب الغش والكذب والخداع، سواء في ألعابه أو في تأدية واجباته المدرسية، ثم نُطالبه فيما بعدُ أن يكون وفيًّا مُخلِصًا في عمله أو في حياته الزوجية؛ فإن الاتجاه نحو الوفاء أو نحو الغدر والخيانة من الاتجاهات العامة التي تصبغ الشخصية بصبغتها الشاملة؛ فإذا كان أسلوب الشخص في حياته هو الوفاء بالوعد والإخلاص في العمل، فمن المُحتمل جدًّا أن يكون وفيًّا مُخلِصًا في جميع أمور حياته، وأن يُبدي هذا الاتساق الذي يُميِّز الشخصية المُتماسكة المُتكاملة.

والحياة الزوجية عملٌ جِديٌّ متَّصِل الحلقات، لا يمكن الشروع فيه ومُواصلة السعي بنجاحٍ ما لم تكن الشخصية متَّسِقة في تصرُّفاتها، مُتكاملة في دوافعها وأهدافها، متَّصِفة بالوفاء والإخلاص.

فالاستعداد للزواج لا يبدأ قبل توقيع عقد الزواج بسنة أو بسنتَين. قد تكفي هذه المدة للاستعداد المادي أو الاقتصادي، ولكنها لا تكفي للاستعداد المعنوي؛ فكثيرًا ما قلنا إن الزواج ليس نهاية عهد وبداية عهد جديد، بل هو الامتداد الطبيعي لنمو المرء العقلي والخلقي، هو إحدى الغايات التي تُحدِّد مراحل الحياة، والتي لا تتحقَّق إلا بتحقُّق الغايات السابقة المُمهِّدة لها؛ وعلى ذلك فالاستعداد للزواج من حيث شروطه المعنوية والخلقية يبدأ منذ الطفولة المُبكرة، ويستند إلى التربية التي يتلقَّاها الطفل من والدَيه، مُتأثرًا بمختلف العوامل التي تؤثِّر في تنشئته الاجتماعية، والتي تُكون فيه الاتجاهات والأساليب التي سوف يستخدمها فيما بعدُ في معاملاته مع الآخرين؛ فإذا شبَّ الطفل وفيًّا مُخلِصًا فمن المرجَّح أن يظل هكذا في المستقبل عندما يشرع في بناء أسرته الجديدة.

وعندما يصبح الوفاء من مُقوِّمات الشخصية وطبيعةً ثابتة في الإنسان، فلا يعود يشعر الزوج أو الزوجة أن الوفاء واجب أو عبء، بل أمرٌ طبيعي تستلزمه طبيعة الزواج؛ أي إنه والزواج شيءٌ واحد، جوهرٌ واحد.

ولا يصبح أمر الوفاء مشكلة من المشاكل إلا عندما ينحرف الزواج عن صورته المثالية، وعندما تتحوَّل الرابطة الزوجية من رابطةٍ معنويةٍ روحية إلى رابطةٍ شكلية تقوم على المنفعة أو حتى على احترام التقاليد. ففي هذه الحالات قد تبدو الحياة الزوجية حياةً هادئةً سعيدةً موفَّقة، ولكن إذا دقَّقنا النظر لوجدناها حياةً فارغةً فاترةً أقرب إلى الموت منها إلى الحياة. فالوفاء في مثل هذه الحالة أشبه ما يكون بالهُدنة التي تقوم بين فريقَين من المُحاربين، فيتعهَّد كل فريق بأن يحترم شروطها، غير أن هذه الهدنة لا يمكن أن تتحوَّل إلى سِلمٍ حقيقي، بل هي أقرب أن تنقلب إلى شجار وحرب.

حياةٌ هادئة في الظاهر، ولكن لا عن انسجام في النشاط، بل عن فراغ وعدم اهتمام، هو الهدوء الذي يُخيِّم على المقابر. وفي مثل هذه الحياة الزوجية التي انعدم فيها الابتكار والتجديد، يدور الزوجان كالأشباح حول مقبرة الحب، والوفاء بينهما وفاءٌ سلبي لا عاطفة فيه ولا حيوية.

وكذلك لا وجود للوفاء في الحالات التي يكون فيها الزواج عبارة عن صفقةٍ تجاريةٍ قائمة على تبادُل المنفعة، وخاضعة لشروطٍ معيَّنة؛ قيود من ناحية، حرية مُطلَقة من

ناحيةٍ أخرى. فمِثل هذا الاتفاق ليس جديرًا بأن يُسمَّى زواجًا، والإخلاص المقيَّد بشروط ليس إخلاصًا، بل ضربٌ من الحساب النفعي.

وبين هذَين الطرفين — طرف الجمود من جهة، وطرف الإباحية من جهةٍ أخرى — يُوجَد الزواج غير المُستقر، حيث تنبعث مشكلة الوفاء باستمرار في جوٍّ من الحذر ومن الغيرة الكامنة. فكلٌّ من الزوجَين عاجز من جهة عن التمسك الصارم بالتقاليد وبالأوامر الخلقية، ومن جهةٍ أخرى عن تحمُّل عبء الحرية الكاملة والاستهتار؛ فهو يعيش في جوٍّ من القلق لا يدري ما إذا كان يجب الرجوع إلى تقاليد الماضي، أو الاتجاه نحو نداء المستقبل الغامض.

وأمثال هذه الحالة كثيرة جدًّا، وهي ليست إلا صدًى للأزمة الروحية والخلقية التي يُعانيها المجتمع في الوقت الحاضر؛ فقد زاد عدد الرُّسل الذين يُوجِّهون نداءهم إلى الإنسان الحديث، واعدين إياه بأن يضمنوا له السعادة والاطمئنان إذا استمع إليهم؛ فهذا يتحدَّث بِاسم العلم، وذاك يُنادي بِاسم الدين، وثالث يستوحي الفلسفة، ورابع يُشِيد بمبادئ سياسية واجتماعية جديدة، وهناك من يتكلَّم بِاسم الفن داعيًا إلى الحرية المُطلَقة إن لم يكن إلى الفوضى والإباحية.

والإنسان اليوم حائرٌ بين هذه النداءات المختلفة المُتضاربة. وليس من الغريب أن تضطرب القيم المعنوية، وأن يصل هذا الاضطراب إلى داخل الأسرة، فيؤثِّر أثره في الحياة الزوجية، جاعلًا مهمة تحقيق الوفاق بين أعضاء الأسرة أمرًا شاقًّا عسيرًا.

والواقع أن المذاهب المُتطرِّفة، أو التي تنحصر في ناحيةٍ دون الأخرى من نواحي الطبيعة البشرية، تعجز لتطرُّفها أو لِقصر نظرها عن أن تُقدِّم لنا حلًّا وافيًا لمشكلات العصر. فلا بد من أن ننظر إلى الإنسان نظرتنا إلى وحدةٍ حيةٍ معقَّدة يجب أن تُراعى فيها نواحيها المادية والعقلية والروحية في آنٍ واحد، أن نُراعي فيما يختصُّ بالموضوع الذي نُعالجه ما يقتضيه الجنس والحب والزواج في آنٍ واحد.

الفصل الرابع

في سبيل التكامل النفسي

(١) تكامُل شخصية المرأة

ليست الطبيعة البشرية بسيطة كما يتصوَّرها عامة الناس، والملاحظة السطحية لا تُعطينا عنها إلا صورةً ناقصةً مشوَّهة، كما أن الطبيعة البشرية ليست خاضعة لقوةٍ واحدة، ولا تسير في اتجاهٍ واحد، في طريقٍ ممهَّدٍ مستقيم، بل هي معقَّدة للغاية، وتتنازعها قُوًى مختلفة، كثيرًا ما تكون مُتضاربة، وإن كان في قدرتها في نهاية الأمر وبعد مشقةٍ كبيرة أن تتقدَّم نحوَ هدفٍ واحد، تتمثَّل فيه إلى حدٍّ ما الأهداف الجزئية التي كانت تجتذبها خلال المراحل التي تقطعها من الطفولة إلى النضج.

وعندما تنتظم الأهداف الفرعية في الهدف الأكبر، وتنسجم الدوافع بعضها مع بعض، تكون الشخصية قد بدأت تُحقق تكامُلها، وتنطبع بطابع الوحدة والتماسك.

هذا الوصف العام لتكامُل الشخصية ينطبق على الرجل والمرأة على السواء، ولكن إذا دقَّقنا النظر وراعَينا الفوارق والاختلافات التي تُميِّز بين الرجل والمرأة، فإننا نجد أن تكامُل شخصية المرأة يخضع لظروفٍ خاصة بطبيعة المرأة من جهة، ومن جهةٍ أخرى خاصة بالتطور الاجتماعي والاقتصادي في عصرنا الحديث. وهذه الظروف الخاصة تجعل عملية تكامُل الشخصية في المرأة عمليةً معقَّدةً عسيرة إذا قِيسَت بتكامُل شخصية الرجل؛ فمن جهةٍ نُلاحظ أن تكوين الطبيعة النِّسوية يُساعد المرأة على تحقيق النضج والتكامل بنسبةٍ كبيرة من السهولة والتماسك، في حين أننا نُلاحظ من جهةٍ أخرى أن بعض الظروف الاجتماعية التي تُحيط بحياة المرأة الحديثة تُعرقِل عملية التكامل، وتُثير العقبات في طريقها. فمن الواجب إذن على كل من يريد معالجة مشاكل المرأة بطريقةٍ حكيمةٍ ناجحة أن يقف بوضوح على جميع مُقوِّمات الطبيعة النِّسوية، وأن يبحث في

كيفية تعديل الظروف الاجتماعية بحيث تتَّفق مع هذه الطبيعة، وتُساعدها على النمو والازدهار.

فمشكلة تكامُل الشخصية عند المرأة تقتضي أن ننظر أولًا في العوامل الطبيعية الفطرية التي من شأنها تسهيل عملية التكامل، ثم ننتقل إلى النظر في الظروف الاجتماعية الراهنة التي تحُول إلى حدٍّ ما دون تحقيق التكامل المنشود.

ولنبدأ الآن بالتحدث عن النقطة الأولى بطرح السؤال الآتي:

هل يصحُّ القول بأن المرأة تجد في طبيعتها ما يُساعدها أكثر من الرجل على تحقيق النضج والتكامل؟ [1]

ذكرنا في بدء هذا الفصل أنه كلما وُجد هدفٌ أكبر وأعلى تندمج فيه الأهداف الجزئية كانت عملية التكامل أيسر تحقيقًا. ويزداد هذا اليُسر كلما كان هذا الهدف واضحًا في الشعور، وكلما حدث هذا الوضوح مُبكرًا، وأخيرًا بقدر ما يكون هذا الهدف الأكبر قائمًا على نزعةٍ لا شعورية ودافعٍ فطريٍّ عميق.

ويمكننا أن نقول بكل اطمئنان إن هدف المرأة الأعلى هو أن تصبح أُمًّا، وأن تُساهم بلحمها ودمها وبكل جوارحها في هذه الوظيفة السامية؛ وظيفة خلق الحياة. إن حياة المرأة مركَّزةٌ تركيزًا عميقًا حول هذه الوظيفة، ونزعتها إلى الأمومة مُتأصِّلة في دوافعها اللاشعورية، وتبدأ هذه النزعة تُحدِث أثرها منذ الطفولة في ألعاب البنت الصغيرة، وفي سلوكها إزاء من هم أصغر منها. وهي لا تكاد تخرج من مرحلة الطفولة حتى تحدث تغيُّراتٌ عميقةٌ واضحة في شكل جسمها وفي سلوكها الخارجي، هذا فضلًا عن التمهيد

---

[1] سبق أن وضَّحنا نظريتنا في التكامل في عدة مواضع، نذكُر منها:

«المنهج التكاملي وتصنيف الوقائع النفسية»، مجلة علم النفس، فبراير ١٩٤٦.
«الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي»، مجلة علم النفس، فبراير ١٩٤٧.
«بعض نواحي علم النفس الجنائي من الوجهة التكاملية»، مجلة علم النفس، أكتوبر ١٩٤٨.
«منهج التحليل النفسي وطبيعته التكاملية»، مجلة علم النفس، يونيو ١٩٥٢.
«الأسس العلمية لفهم تكامل الشخصية»، في الفصل الثالث من كتاب «شفاء النفس»، ص١٠٢–١١٦ من الطبيعة الثانية، ١٩٥٣.
«مبادئ علم النفس العام»، الطبعة الثانية ١٩٥٤، ص٤٢٠، الناشر دار المعارف بمصر.

الفسيولوجي لوظيفة الأمومة المُقبِلة. فالمرأة هي بحقٍّ حارسة الحياة، وهي حريصة على المحافظة على هذه الوديعة المقدَّسة.

نعم إن الرجل يُساهم بدَوره في خلق الحياة، ومُساهمته ضرورية؛ غير أنه مجرد مُخصِّب إذا نظرنا إليه من الوجهة البيولوجية البحتة، وأهملنا إلى حينٍ الجانب السيكولوجي والجانب الاجتماعي، ولكن على كل حال، وحتى إذا راعَينا هذَين الجانبين، لا يمكننا القول بأن الرجل مركَّز حول غريزة الأبوة بقدر تركيز المرأة حول غريزة الأمومة، بل لا يحقُّ لنا أن نتحدَّث عن الأبوة على أنها غريزة، فهي عاطفة أكثر منها غريزة، وككل العواطف في حاجة إلى تربية ورعاية لكي تنشأ وتقوى، وكل ما يمكن التحدث عنه من الوجهة الغريزية في الرجل هو غريزة التخصيب لا غير. ومُساهمة الرجل في خلق الحياة مُساهمةٌ عابرة لا تترك في جسمه أثرًا ملحوظًا، في حين أن جسم المرأة يتأثر تأثيرًا بليغًا تهيئةً لنمو الطفل مدة الحمل.

ويُلاحَظ في بعض الحيوانات كالحشرات أن الذَّكر يموت عقب قيامه بوظيفة التخصيب، وتُركِّز الطبيعة كل عنايتها حول الأنثى. وفي هذا دليل على قيمة الأنثى، وقيمة مُساهمتها في بقاء الجنس.

فالمرأة تجد في غريزة الأمومة المَركز أو المحور الذي سيُوجِّه جميع دوافعها، وينظمها بصورةٍ متَّسِقةٍ مُنسجمة. وعندما نقول جميع الدوافع نقصد ما نقول، ولا نستثني منها شيئًا مما ينتمي إلى الحياة العاطفية والحياة الاجتماعية والروحية. فإن كانت الأمومة هي مركز نشاط المرأة، فإن هذا المركز لا يتعارض في صميمه مع أي نشاط آخر من شأنه تكملة الطبيعة البشرية في نواحيها العاطفية والروحية، بل على العكس من ذلك، فإن ألوان النشاط الثقافي والاجتماعي تستمدُّ من هذا المركز قوَّتها الدافعة وطاقتها الإبداعية. فالمرأة لاتِّحادها العميق بالطبيعة، ولكونها ينبوع الحياة، تنمو وتكتمل بفضلِ قوةٍ داخليةٍ أصلية، كالشجرة التي تحمل الأزهار ثم الثمار؛ لأن من طبيعة الشجرة أن تكسوها الأزهار والثمار. أما الرجل فهو بالقياس إلى المرأة في حالة حيرة وتردُّد، تتجاذبه أهدافٌ مختلفة قبل أن يُوفَّق إلى تحديد هدفه الأكبر في الحياة، وعندما يُوفَّق إلى ذلك فكثيرًا ما يكون استقراره نتيجة لضغط الظروف الخارجية، وحتى لما يصل إلى حالة الاستقرار والثبات فهو لا يزال مهدَّدًا بالتشتت والتشرد، إن لم يكن في سلوكه الخارجي فعَلى الأقل في تفكيره؛ ولهذا السبب كثيرًا ما يكون الوفاء الزوجي في نظر الرجل مشكلةً تقتضي الحل والمعالجة، في حين أن الوفاء الزوجي في نظر المرأة أمرٌ طبيعي، لا يتحوَّل

إلى مشكلة إلا عندما تتعطَّل وظيفة الأمومة، أو تنحرف عن طريقها السوي، أو عندما لا تجد بديلًا لها في شكل من أشكال الأمومة الروحية.

فوظيفة الأمومة هي التي تُعيِّن للمرأة المراحل التي تجتازها في نموها الجسمي والوجداني والاجتماعي؛ هي كالقطب الذي يجذب إليه مختلف القُوى والطاقات التي يتضمَّنها المجال الحيوي. وبقدر خضوع هذه القُوى والطاقات، أو بعبارةٍ أخرى دوافع السلوك المختلفة، لهذه الجاذبية تقترب عمليات النمو والتكيُّف من تحقيق تكامُل الشخصية.

وسنتحدَّث في الفقرة التالية عن أهم هذه الدوافع، وعن العلاقات التي تربط بينها بحيث تجعل منها نظامًا مرتَّبًا ترتيبًا تصاعديًّا، تتفاعل في داخله هذه الدوافع دون أن تقضي على المستويات التي تُعيِّنها مراحل النمو. ونودُّ أن نقول منذ الآن إن الأنظمة الاجتماعية التي تُساعد المرأة على أن تنمو نموًّا سويًّا، والتي تُساهم بالتالي في إسعادها وإسعاد أسرتها، تستوحي دائمًا هذا النظام التصاعدي للدوافع والنزعات.

أما إذا خالفت الأنظمة الاجتماعية هذا النظام، فعندئذٍ تصبح عملية التكامل لدى المرأة عمليةً عسيرةً شاقَّةً مهدَّدة بالانحراف والفشل. فالواجب الأول للمُشرِّع أو للمُصلِح الاجتماعي أن يتعمَّق دراسة طبيعة الفرد ودراسة الفروق الموجودة بين الجنسَين قبل أن يُحاول تغيير النظام الاجتماعي وتعديله.

(٢) الحب بين الجاذبية والنداء

لا شك في أن الحضارة العصرية مدينة في معظم مظاهرها إلى تقدُّم العلوم. وعندما نذكُر كلمة العلوم يتَّجه ذهننا إلى العلوم الطبيعية، وإلى هذه الفنون الميكانيكية العجيبة التي تُنشئ المُدن الجبَّارة، وتتحكَّم في قُوى الطبيعة، وتُضاعف الإنتاج، وتُقرِّب المسافات البعيدة، وتُوفِّر كثيرًا من المجهودات المُضنِية بفضل الأجهزة والآلات. وبما أننا نتحدَّث أيضًا عن العلوم النفسية والاجتماعية، فقد نظنُّ أن هذه العلوم تُشبِه العلوم الطبيعية في دقة تفسيراتها وإحكام تطبيقاتها. ومع أننا نؤمن بالعلم وبخصب منهجه وبقيمة المعرفة العلمية، غير أنه ليس من الحكمة أن يكون هذا الإيمان إيمانًا أعمى، وأن نتجاهل مواطن الضعف والنقص التي نُشاهدها في العلوم النفسية والاجتماعية. قد يعتقد بعض علماء النفس أنهم كشفوا عن سر الطبيعة البشرية عندما يُفسِّرون لنا كيف تنشأ العواطف وكيف تتطور، أو عندما يصفون لنا المراحل التي يجتازها النمو العقلي. الواقع أن وصف

مراحل النمو وربطها بعضها مع بعض لا يكفي لكي نفهم طبيعة الإنسان وجوهره، فلا بد من محاولة الوصول إلى الجوهر لكي تكتمل المعرفة العلمية. وتحقيق هذا الشرط لا بد منه عندما نكون بصدد الإنسان، وربما كان الفلاسفة والشعراء الذين أدركوا هذه الضرورة أكثر من غيرهم أقرب إلى فهم جوهر الإنسان من العلماء أنفسهم.

وعندما نتحدَّث عن تكامُل شخصية المرأة، وعن العمليات التي تنتظم بمُقتضاها الدوافع والنزعات، علينا أن نُواجِه هذا السؤال الخاص بجوهر الطبيعة البشرية؛ فإنَّ رأينا في عملية تكامُل الشخصية سيختلف تبعًا لردِّنا على هذا السؤال المبدئي: هل الإنسان مجرد جسم مادي تُضاف إليه بعض المظاهر النفسية، بحيث تكون هذه المظاهر لاحقة للمادة وتابعة لها في حدوثها؛ أم أن الإنسان في جوهره عقل ونفس، وأن اتحاد هذه النفس بالجسم لا يحرم النفس من قدرتها على تقويم الجسم وتوجيهه؟ فلا بد أن نختار بين هذَين الموقفين. والأدلة المستمدَّة من تاريخ الإنسانية ومن العلوم النفسية والاجتماعيَّة تجعلنا نختار الموقف الذي يقول إن جوهر الإنسان من طبيعةٍ روحية، وإن العقل هو مبدأ الحرية، وأخيرًا إن النضال القائم بين الحرية والضرورة، أي بين العقل والمادة، لا بد أن ينتهي بانتصار الحرية.

وسنُبيِّن الآن أهمية هذا الموقف في موضوع تكامُل شخصية المرأة. فإذا تتبَّعنا مراحل التكوين النفسي في الإنسان وجدنا أن الدوافع الأولى التي تنشط في حياة الطفل هي الدوافع الفسيولوجية، كالحاجة إلى الطعام والنوم والحركة، ثم تظهر الدوافع النفسية، كالدوافع إلى استطلاع العالم الخارجي، والحاجة إلى العطف والاطمئنان، والاتجاهات العاطفية، والميول الاجتماعية المختلفة. والسؤال الذي يفرض نفسه علينا هو: هل جميع هذه الدوافع النفسية والاجتماعية هي نتيجة نمو الدوافع الفسيولوجية، ونتيجة الاكتساب والتمرين في البيئة العائلية؛ أم أن لهذه الدوافع النفسية مصدرًا خاصًّا مستقلًّا عن مصدر الدوافع الفسيولوجيَّة، وإن كان المصدران يتبدلان الأثر والتأثير ويتفاعلان معًا؟

ولنُطبِّق ذلك على المرأة، ناظرين إلى حياتها كحركةٍ واحدة تتَّجه خلال مراحل النمو نحو تحقيق وظيفتها العليا، بل رسالتها العليا؛ أي نحو تحقيق الأمومة. فالذي نُشاهده هو أن شخصية المرأة تتكوَّن من مراتب أو من أدوارٍ ثلاثة؛ فهي من الوجهة البيولوجية أنثى، ومن الوجهة النفسية امرأة تنتمي إلى الجنس البشري، ومن الوجهة الاجتماعية زوجة وأم. وعندما يتناول العالم دراسة هذه الأدوار الثلاثة فإنه يُركِّز نظرته للأنثى في دراسة الغريزة الجنسية، ونظرته للمرأة في دراسة الحب، ونظرته للزوجة في دراسة

نظام الزواج. هل بعد أن يفرغ من دراسة الغريزة الجنسية سيتناول عاطفة الحب كأنها مشتقَّة من الغريزة الجنسية، وأن الحب ليس في جوهره إلا إعلاءً للغريزة الجنسية، وأن نظام الزواج لا يرمي إلا إلى تنظيم نشاط هذه الغريزة؟ فإذا اتُّبع هذا الرأي يكون قد بسط الطبيعة البشرية إلى أقصى حد، وردَّها في نهاية الأمر إلى الطبيعة الحيوانية البحتة، وعندئذٍ يصبح ما نُسمِّيه بالتكامل عملية خداع وتمويه. لا شك أنه يُوجَد في الحب أكثر مما يُوجَد في الغريزة الجنسية، والدليل على ذلك أن في إمكان بعضهم الفصل بين الغريزة الجنسية وبين الحب، مع العلم بأن المبدأ هو اتحاد الاثنين في الإنسان. إن الغريزة الجنسية مُشتركة بين الحيوان والإنسان، أما الحب فهو خاص بالإنسان؛ هو الشاهد على وجود المبدأ الروحي والعقلي في الإنسان. وإذا كانت الحياة الحسية البحتة تسبق في زمن ظهورها بُزوغ عاطفة الحب، فهي لا تفضُل الحب ولا تسبقه في ترتيب القيم؛ لأن الحياة الحسية في الإنسان، وإن كانت شبيهة بحياة الحيوان، فهي مصبوغة منذ البداية بصبغةٍ إنسانية.

لا شك في أن الغريزة الجنسية عنصرٌ من عناصر الحب؛ فهي التي تخلق الجاذبية بين الجنسَين، ولكن الجاذبية عامل تقييد، وفيها إنكار للحرية؛ فهي تفرض نفسها فرضًا، وقد تتلاشى فجأةً وبدون سبب ظاهر. وبجانب الجاذبية يُوجَد أمرٌ آخر جوهره يختلف عن جوهر الجاذبية؛ لأنه ينطوي على الحرية والاختيار، وهذا الأمر يمكن أن نُسمِّيه بالنداء، والحب يستجيب مُختارًا حرًّا لهذا النداء، وتلبيته لهذا النداء لا تكون بالاستيلاء والتملك، بل تكون بالبذل والعطاء وإنكار الذات.

وأقصد هنا الحب الذي يتميَّز في جوهره عن الغريزة الجنسية، والذي ينتمي إلى هذا الجانب الروحي الذي يُميِّز — شِئنا أو لم نشأ — الإنسان عن الحيوان.

جاذبية من جهة، نداء من جهةٍ أخرى؛ ضرورة وتقييد من جهة، حرية واختيار من جهةٍ أخرى. وآفة الجاذبية أنها تزول بعد الإشباع الذي لا يلبث طويلًا حتى يترك وراءه فراغًا ومرارة وقلقًا. أما النداء الذي يستجيب له الحب، والذي يدفع المُستجيب إلى بذل نفسه وإنكار ذاته، فلا يؤدِّي أبدًا إلى هذا الإشباع، وبالتالي إلى هذا الفراغ المرير، بل يظل صوته مسموعًا؛ لأنه صوت الأمل. ومن يهَبْ نفسه تلبيةً لهذا النداء تعُود إليه هِبته؛ لأنه سيجد نفسه أكثر ثراءً واكتمالًا.

تلك هي الاعتبارات التي يجب أن نُراعيها عندما نتحدَّث عن تكامُل الدوافع الجنسية والدوافع العاطفية؛ فالعاطفة هي التي، بعد بزوغها، تنظم الدافع الجنسي حتى لا يُسيطر على سلوك الإنسان. فالمرأة هي إنسان أولًا قبل أن تكون حيوانًا، وهي ليست فقط مَركزًا للجاذبية، بل مصدر نداء روحي لا يجد الرجل سعادته الحقَّة إلا في تلبية هذا النداء.

وكذلك ليست الأمومة مجرد امتداد للغريزة الجنسية، بل هي تنطوي على مَعانٍ تفُوق في سموِّها جاذبية الجنس. فكما أن الحب الكامل يضمن الحرية للفردَين اللذين اتَّحدا في عاطفةٍ واحدة، فالأمومة بدَورها تضمن الحرية للوجود نفسه؛ لأن فيها تتكامل الغريزة الجنسية والحب، وبفضلها تنتصر الحرية على الضرورة والروح على المادة.

خاتمة

رسالة الأم

إذا أردنا أن نُلقي نظرة إلى الطريق الذي قطَعناه حتى الآن في هذه الدراسة، وأن نتطلَّع في آنٍ واحد إلى فجرٍ جديد تُبدِّد أضواؤه ما يُخيِّم على قلب الإنسانية من ظلمات اليأس والتشاؤم؛ فما علينا إلا أن نُوجِّه أنظارنا نحو الأم، وأن نتحدَّث عن رسالتها السامية، وعن الدور العظيم الذي تؤدِّيه في رفع المستوى الحضاري، وفي توفير أسباب الاتزان النفسي والسعادة لرجال الغد.

استيقظ العالم العربي من سُباته العميق، وقام يدعو أبناءه إلى النهضة والتقدم واستثمار الثروات الطبيعية لتعميم النفع على الجميع، ورفع مستوى المعيشة. ولكي تنجح الحركات الإصلاحية لا بد في بادئ الأمر حصر رءوس الأموال الأساسية التي ستَثتثمر في سبيل النهضة والإصلاح. وقد يتبادر إلى الأذهان أن رأس المال الأساسي هو المال أو الثروات الطبيعية على اختلاف أنواعها. الواقع أن هناك رءوس أموال لا يمكن الحصول عليها بالمال، وبدُونها لا يمكن استغلال الأراضي والمناجم ومنابع الطاقة الطبيعية، ورأس المال الأساسي هو الطاقة البشرية، هو القدرة على العمل وعلى الإنتاج المنظَّم المُستديم، هو القدرة على تكوين علاقات إيجابية وإنتاجية بين أفراد المجتمع في جوٍّ من الثقة والتعاون، وفي حدود احترام القوانين الأخلاقية والصالح العام. وهذه الطاقة البشرية تتلخَّص في كلمتَين: الصحة الجسميَّة أولًا، ثم الصحة النفسية ثانيًا؛ وما يتبعهما من إقدام على العمل، ومن القدرة على الابتكار والتجديد، ومن رغبة في الإنتاج، وتحسين هذا الإنتاج في جميع ميادين النشاط الإنساني.

وممَّا لا شك فيه أن العبء الأكبر في توفير هذه الطاقة البشرية التي نتحدَّث عنها يقع على عاتق الأم. وممَّا يدعم هذه الحقيقةَ الجوهريةَ البحوثُ العلمية التي قامت بها أخيرًا المنظمة الدولية للصحة بالاتفاق مع لجنة الأمم المتحدة للشئون الاجتماعية. وقد قام بهذه البحوث الدكتور John Bowlby طبيب الأمراض العقلية، ومُدير إحدى العيادات السيكولوجية الكبرى بمدينة لندن. وقد نُشِر تقرير الدكتور Bowlby بعنوان: عناية الأم وصِلتها بالصحة النفسية. ثم لُخِّص هذا التقرير ونُشِر في مجموعة Penguin بعنوان: العناية بالطفل ونمو الحب.

وقد اهتمَّ واضع التقرير بدراسة مصير الأطفال الذين حُرِموا من عناية الأم، ونشَئوا في مؤسساتٍ حيث كانت الخدمة موزَّعة بين عدد من الأفراد، دون أن يكون هناك من يعتني بطريقةٍ مُستمرة بكل طفل على حِدَة.

وجد هؤلاء الأطفال كل ما يلزم من العناية المادية، ولكنهم حُرِموا ممَّا هو أهم من العناية المادية؛ أعني من حب الأم ودفء صدرها. وقد أحدث هذا الحرمان نقصًا بليغًا في تكوين شخصية الأطفال، وفي قدرتهم على تكوين علاقات تعاونية مع الآخرين، بل كوَّن فيهم اتجاهاتٍ عدوانيةً نحو المجتمع؛ فظهر آثارها في سن المُراهقة والشباب. وممَّا هو جدير بالذِّكر، أن المُشرِفين على العيادات السيكولوجية لمسوا صعوبةً كبرى في معالجة مثل هؤلاء الأطفال المُشكلين، بل اعترف الكثير منهم بعجزهم التام عن تعويض ما فقده هؤلاء الأطفال من حب الأم، وعن إصلاح ما سبَّبه هذا الفقدان من شذوذ في شخصيتهم. هذا يجعلنا نُقرِّر من جديدٍ هذه الحقيقة التي أخذ علماء النفس يُردِّدونها بإلحاح، وهي أن أهم مُقوِّمات الشخصية تتكوَّن وتنمو في السنين الأولى من حياة الإنسان، وأن أسلوب الحياة الانفعالية وما يتبعها من استعداد لبعض الأمراض الجسمية يكتسبه المرء في طفولته حيث يكون اعتماده على الآخرين كبيرًا جدًّا. والعامل الأساسي في تكوين شخصية الطفل، وفي توفير أسباب نموها السوي، هو عناية الأم بطفلها، وأهم وجه من وجوه هذه العناية ليس مجرد تغذية الطفل ورعاية صحته، بل بذل الحب له، وإحاطته بجوٍّ من العطف والاطمئنان؛ فحب الأم لطفلها هو العامل المُشترك في جميع أنواع العلاقات التي تصل بينهما. ويجب أن تستمرَّ هذه العلاقة بدون انقطاع في السنوات الثلاث الأولى بوجهٍ خاص؛ فتغيُّب الأم فتراتٍ طويلةً من الزمن يُحدِث في نفسية الطفل نوعًا من الحيرة والتردد وعدم الاستقرار؛ ممَّا يؤذي نشأته الأولى.

وإذا كان الأمر كذلك، أي إذا كان لحب الأم لطفلها هذه الأهمية الجوهرية في تكوين جيل صالح متَّزِن ناضج، فمن واجبنا أن نطرح من جديد على بِساط البحث مشكلةَ عمل

الأم خارج المنزل من الصباح إلى المساء، وترك طفلها الصغير في رعاية مُربِّية مأجورة تتغيَّر من وقت إلى آخر، أليس من حق الطفل على أمه أن يُطالِبها أولًا بهذا الغذاء الروحي الذي بدونه يتحوَّل الغذاء المادي إلى شيءٍ مُنغِّص يصعب هضمه وتمثيله؟ ومن واجب الدولة أن ترعى شئون الأسرة بشتَّى الوسائل التشريعية، بحيث تتمكَّن الأم من العناية بطفلها كما يجب. ومن واجب المؤسَّسات الاجتماعية والتعليمية أن تُنظِّم دراساتٍ للكبار لتثقيفهم بالثقافة السيكولوجية اللازمة لهم؛ لكي يفهموا عملية نمو الشخصية في الطفولة، ويُدرِكوا أهم العوامل التي تؤثِّر في هذا النمو، فيستعدُّون للحياة الزوجية مزوَّدين بأصول فن التربية، فيتجنَّبوا الأخطاء التي تُسيء إلى نفسية أطفالهم على غير وعي منهم.

تلك هي الرسالة الأولى التي يجب على الأم تأديتها لكي نضمن جيلًا يمتاز بالاتزان الانفعالي والنضج العقلي، هذا هو رأس المال الأساسي الذي يجب أن نبني عليه صرح المستقبل.

هناك رسالةٌ أخرى تشمل جميع أفراد الأسرة، على الأم أن تُساهم بقسطٍ وفير في تحقيقها، هي خلق حياة عائلية حقَّة داخل المنزل، يكون محورها حب الزوجَين أحدهما للآخر، وحرصهما على تحقيق سعادة الأطفال بتنشئتهم في جوٍّ من المودَّة المُتبادلة، ومن الاحترام للقيم الإنسانية العليا. وأول قيمة في نظرنا، نحن في حاجة إلى الدفاع عنها، وغرسها في قلوب الجيل الناشئ، هي حب العمل، واحترام الواجب والإحساس اليقِظ بضرورة إنجاز العمل على خير وجه ممكن. والأم في بيتها وهي تقوم بأعباء واجباتها المنزلية دون تذمُّر ولا استياء، هي أفصح مثل يُقدَّم للأبناء لكي يشبُّوا على حب العمل، وعلى بذل المجهود بالصبر والتأنِّي.

إن الشرق لا يُعوِزه الإيمان ولا الحماس ولا القدرة على بناء الآمال الواسعة، ولكن هو في حاجةٍ ماسَّة إلى تنمية الرغبة في العمل؛ العمل الدقيق المُتقَن الذي نبدؤه لكي نُنجِزه، لا لكي نتركه ناقصًا مشوَّهًا.

عاطفةٌ متَّزِنة، شخصيةٌ ناضجة، حياةٌ عائليةٌ حقَّة، حب العمل والرغبة في إنجازه بدقة ونظام؛ تلك هي الصفات التي نُطالب بها الأم العربية أن تُحققها في أفراد الجيل الناشئ. هناك بالطبع صفاتٌ أخرى عديدة كان يجب ذِكرها، غير أننا اقتصرنا على ما يبدو لنا أهم من غيره في هذه المرحلة الدقيقة التي تجتازها الأمم العربية في سبيلها إلى النهضة والتقدم. وربما يجدر بنا أن نذكُر فضيلةً أخيرة نعتقد أنها هامَّة جدًّا لنهضتنا

الاقتصادية، وعلى الأم خاصةً تنمية هذه الفضيلة في أبنائها؛ أقصد روح التوفير. لا يمكن أن تصبح أمة من الأمم قوية سياسيًّا إن لم تكن قوية اقتصاديًّا، لا يمكن أن يكون اقتصادها قويًّا بدون نشر روح التوفير بين أفرادها. قد لا يكون التوفير مُتيسِّرًا دائمًا، خاصة في الطبقات الفقيرة، غير أن المهم هو ليس كمية ما يُوفَّر بقدر ما هو روح التوفير ذاته، وما يقتضيه من النظام والتدبير الحسن. والأم بدون شك، عندما تكون شاعرة تمامًا بخطر رسالتها، أميَلُ إلى التوفير منها إلى التبذير، وعندما تعمل على تنمية روح التوفير في أبنائها، فهي في الوقت نفسه تُربِّي فيهم روح الاتزان وحب العمل وعادة التبصر في عواقب الأمور، وهي كلها خصالٌ حميدة تقوم عليها نهضة الشعوب وسعادة الأفراد.


هنـــداوي